الفصل الثالث

النظرة إلى المستشرقين وكتاباتهم

- المستشرقون والثقافة العربية .
- الاختلاف فى تقدير المستشرقين .
- المحذِّرون منهم .
- أسلوب المستشرقين فى حقدهم بين الصراحة والخفاء .
  - ❊ فى العصور الوسطى .
  - ❊ بعد منتصف القرن التاسع عشر .
- أساليب الحرب الفكرية الخفية .
- آثار التجريح .
- لماذا الاهتمام بتجريح الرسول ؟
- دوافع الانحراف وأسبابه .

obeikandl.com

obeikandl.com

المستشرقون والثقافة العربية

استرعى انتباهى الدكتور سليمان دنيا بهذا العنوان فى مقدمته للإشارات والتنبيهات لأبى على بن سينا وشرحه لنصير الدين الطوسى ، وهى كلمة حق أرى فيها صدق القلب واليقين ، آثرت أن أنقلها بنصِّها لما فيها من حق أولاً ، ولما للشيخ وقوله من قيمة علمية ثانياً . قال وفقه الله (١) :

« وبصدد الحديث عن الإخراج المسرف فى التأنق الذى أُغرمنا به اقتداءً بالمستشرقين أحب أن أشير إلى أن الثقة الكبيرة التى أوليناها للمستشرقين حتى اتخذنا منهم أساتذة لنا هى ثقة لم تقم على أساس سليم لاعتبارات كثيرة :

« منها : أن الاستشراق قام فى أول ما قام وفى معظم ما قام - على غير أساس علمى خالص ، بل ارتبط بأمور هى أشبه بالسياسة منها بأى شىء آخر ، ونتيجةً لذلك أعوزه عنصر أصيل من العناصر التى يتطلبها البحث العلمى ، وهو النزاهة والتخلى عن الأغراض .

« ومنها : أن الاستشراق - بغضِّ النظر عن عنصر النزاهة - قد خالطته كبرياء لا تليق بالعلم والعلماء . ذلك أن العلوم منها خاص يختص بفريق دون فريق من الناس ، ومنها عام هو شركة بين الناس جميعاً .

« **أما العام** . . فهو الذى يعتمد على مقومات مشتركة بنسب متساوية أو متقاربة بين أبناء الجيل الواحد ، أو الأجيال المتقاربة ، كالحساب والجبر والهندسة مثلاً ، أو كالفلك والطبيعة والطب ، فإن التفاوت إن حصل بين قبيل وقبيل فى هذا العلم أو ذاك ، فهو راجع فى الغالب إلى تيسُّر آلات تساعد على سرعة الكشف ودقته ، لفريقٍ أكثر من فريق ، لا إلى مواهبَ ومقوماتٍ إنسانية امتاز بها فريق على فريق .

---

(١) الإشارات والتنبيهات القسم الأول ص ١٢ ، ١٨ - طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

« وحين يتيسر لفريق أن يسبق آخر فى هذا المضمار ، فلا بأس أن يأخذ المتأخر عن المتقدم ، والأمر فى ذلك قُلَّب ، فالآخذ فى وقت يصبح مأخوذاً عنه فى آخر ، والمأخوذ عنه فى فترة قد يصبح آخذاً فى فترات ، وتاريخ العلوم شاهد على ذلك .

« **أما الخاص من العلوم** . . فهو الذى ينبنى على مواهب وأصول ، ليست عامة بين الناس ، ولكنها خاصة بفريق منهم : كاللُّغة مثلاً . . فاللُّغة العربية خاصةٌ بالعرب واللُّغة الإنجليزية خاصة بالإنجليز ، فليس يمكن أن يقال : إن الإنجليز أعرف بلغة العرب من العرب أنفسهم ، ولا أن العرب أعرف بلغة الإنجليز من الإنجليز أنفسهم ، ولو صح أن يقال : إن شخصاً إنجليزياً أجادَ اللُّغة العربية حتى أصبح فيها أقدرَ من بعض العرب ، فليس يصح أن يقال : إن الأمر فى ذلك صار قضية كلية فيكون كلُّ المتعلمين للُّغة العربية من الإنجليز أقوى فى اللُّغة العربية من المتعلمين العرب ، ولا كل المتعلمين للُّغة الإنجليزية من العرب أقوى فى اللُّغة الإنجليزية من المتعلمين الإنجليز .

« وهناك علوم أخرى شأنها فى ذلك شأن اللُّغة كعلوم القرآن والحديث والفقه الإسلامى وتاريخ التشريع الإسلامى ، والتاريخ الإسلامى نفسه ، وعلوم البلاغة العربية والأدب العربى . فليس يمكن أن يكون غير العرب أقوى فى هذه العلوم من العرب ، ذلك لأن اللُّغة العربية تلعب دوراً هاماً ، بل تلعب دوراً كبيرَ الأهمية جداً فيها . فمعرفة الناسخ والمنسوخ مثلاً [1] ، أو العام والخاص وما إلى ذلك من دراسات قرآنية ، تعتمد أولاً وقبل كل شىء على تحديد الدلالة اللَّفظية ، ومفاد الجملة ، ليمكن إدراك التعارض والتمانع اللَّذين يترتب عليهما القول بأن اللاحق يتعارض مع السابق حتى يكون هذا ناسخاً لذاك أو مخصصاً له . . . إلى آخر ما يقال فى هذه المواضع .

---

(١) أصدرت لبيان بطلان دعوى الناسخ والمنسوخ كتابى : « النسخ فى الشريعة الإسلامية كما أفهمه » ، فليراجع .

« وكذلك يقال فى تاريخ التشريع الإسلامى ومنشأ الخلاف بين الأئمة المجتهدين ، ومبلغ ارتباط ذلك بالدلالات اللُّغوية وعمقها وغزارتها وتنوعها .

« وهكذا . . وهكذا فى سائر العلوم الإسلامية والعربية التى تُعتبر اللُّغة العربية بمثابة القاعدة منها والأساس لها .

« وإذا ساغ فى العامّ من العلوم أن يأخذ هذا الفريق من الناس عن ذاك الفريق - حسب التفوق أو السبق - فليس يجوز فى الخاص منها إلا أن يأخذ الدخيل عن الأصيل ، والأجنبى عن غير الأجنبى .

« هذا هو النهج السليم للدراسة الصحيحة ، وعلى هذا النهج سار الناس فى إفادتهم واستفادتهم . فالإنجليز مثلاً يوفدون إلى فرنسا من أبنائهم مَن يريدون له ومنه أن يكون متفوقاً فى اللُّغة الفرنساوية .

« والعرب يوفدون من أبنائهم إلى بلاد الإنجليز مَن يريدون أن يكون تام المعرفة باللُّغة الإنجليزية ، وهكذا غير العرب وغير الإنجليز .

« لكن الغرب لما رأى نفسه متفوقاً عن بعض الشرقيين فى مضمار السياسة أبى عليه كبرياؤه - وهو الحاكم والسيد فى المجال السياسى - أن يجلس أمام الشرقيين يتتلمذ عليهم ويتعلم منهم ما هو خاص بهم من علم ومعرفة ، وحاولوا أن يتعلموا هذه العلوم بأنفسهم ، وفى بلادهم ، ولا بد أنهم استعانوا أول الأمر بالشرقيين ، ولكن فى نطاق فردى وغير رسمى ، ثم فكروا فى إنشاء معاهد خاصة للدراسات الشرقية فى بلادهم ، فأنشأوا كليات أسموها كليات الدراسات الشرقية ألحقوها بالجامعات فى حواضر البلاد الغربية ومدنها الكبرى ، وأشبعنا نحن غرورهم هذا ، فأوفدنا نحن العرب والمسلمين أبناءنا إلى بلاد العرب يتعلمون فيها علومنا الإسلامية والعربية فى هذه الكليات ، ويحصلون منها على الدرجات العلمية ، وصار مألوفاً أن يُبعث أبناء كلية الآداب وأبناء دار العلوم وأبناء الأزهر إلى كليات الدراسات الشرقية فى حواضر بلاد الغرب يدرسون اللُّغة العربية ، ويحصلون على درجات علمية

فى الأدب العربى على أيدى أساتذتهم المستشرقين الذين لا يُحسنون كتابة خطاب باللُّغة العربية ، ويحصلون على درجات علمية فى الفلسفة الإسلامية على أيدى أساتذتهم المستشرقين الذين لا يتيسر لهم أن يفهموا عباراتها الشبيهة بالألغاز - تلك العبارات التى يعجز المتضلعون فى اللُّغة العربية عن فهمها ، ولا يبلغ مرادَ أصحابها منها إلا فئةٌ خاصة لها دراية بأساليبها المركزة ، وعباراتها المعقدة .

« ويحصلون على درجات علمية فى علم الكلام وتاريخ التشريع ، وأيضاً الفقه الإسلامى ، على أيدى أساتذتهم الذين إن أمكنهم أن يُخرجوا كتاباً فى التوحيد أعجزهم أن يفرقوا بين التقرير والحاشية ، أو بين المتن والشارح ، فضلاً عن أن يفهموا ذلك كله ، ويُتابعوا الفكرة وهى تنتقل بين عارض موجز وشارح موضح ، وناقد أو مكمل ، وموازن أو مرجح .

« وإن أمكنهم أن يقرأوا تاريخ التشريع فليس يمكنهم أن يفطنوا إلى الـمَلاحظ الدقيقة ، ولا إلى الاعتبارات اللُّغوية التى دخلت فى حساب الأئمة المجتهدين وهم يرسمون لأنفسهم مناهج البحث وطرائق استنباط الأحكام .

« وإن أمكنهم أن يقرءوا الفقه الإسلامى فلن يختلف موقفهم منه عن موقف رجل من المشتغلين بالفلسفة أو بالتاريخ مثلاً ، أراد أن يطلع على القانون الوضعى ، فلن يبلغ فيه ، وهو غير متفرغ له ، مبلغ رجال القانون أنفسهم ، مع الفارق الكبير بين القانون الوضعى والفقه الإسلامى ، إذ القانون الوضعى مستَمدٌ من عقول البشر التى هى على تفاوتها شركةٌ بينهم ، أما الفقه الإسلامى فهو تشريعاتٌ إلهية قد تعلو حكمةُ تشريعها عن مستوى تفكير الجمِّ الغفير من الناس ، هذا فضلاً عن أنها نزلت بلسان عربى ، وللعرب وحدهم ميزة القدرة على فهمه الفهم الصحيح .

« ولقد دخلت الفلسفة الإسلامية نفس المحيط الذى نزله الفقه الإسلامى وتاريخ التشريع الإسلامى ، والتاريخ الإسلامى ، وعلم الكلام الإسلامى ،

والأدب العربى ، وصار للفلسفة الإسلامية نتيجةً لذلك - أساتذة عالميون من المستشرقين يقولون فيسمع العالم العربى كله لما يقولون ، ويؤلفون فتكون مؤلفاتهم حُجَّة بين المؤلفات ، ويُخرجون الكتب فيكون إخراجهم نمطاً عالياً ، يقاس به إخراج غيرهم .

« إن هذه الهيمنة العلمية على شئوننا العربية والإسلامية هى اغتصابٌ اغتصبه المستشرقون الغربيون ، كما اغتصب ساستهم أوطان العرب والمسلمين ، وإذا كان العرب قد طردوا المستعمرين من جميع بلادهم أو كادوا ، والمسلمون كلهم سائرون فى نفس الطريق ، فمن واجب العلماء العرب والمسلمين على السواء أن يطهِّروا ميدانهم الفكرى الخاص بهم من الاستعمار الغربى ، كما طهَّر الساسة ميدانهم الأرضى والمائى والجوى من الاستعمار المادى .

« وإذا كان رجال الفكر فى العالم العربى والإسلامى ينظرون إلى الساسة العرب والمسلمين نظرة إكبار تارةً ، ونظرة سخط أخرى ، حين ينجحون فى أمر ، أو حيث يفشلون فيه ، فإن الساسة أيضاً بدورهم ينظرون إلى رجال الفكر نفس النظرة ، ويتطلبون منهم أن ينجحوا فى مهمتهم ، وأن يتحرروا من الغزو الدخيل الجارح لكرامتهم ، فليس أشنع من أن يقال : إن الباحث الفلانى الذى حصل على أكبر درجة علمية معترف بها فى مصر فى الفقه الإسلامى ، أو فى علم الكلام الإسلامى ، أو فى تاريخ التشريع الإسلامى ، أو فى التاريخ الإسلامى ، أو فى الأدب العربى ، أو فى الفلسفة العربية قد سافروا إلى أوروبا لاستكمال الدراسة فى هذه المواد هناك ، أو للحصول على درجة علمية معترف بها من المستشرقين فى الجامعات الغربية .

« إن هذا فى نظرى شفاعة دونها كل شفيع ، ولعل عدم إحساسنا بخستِّها وحقارتها راجع إلى أن النفوس كانت فى الماضى قد مرنت على الذلة ، وألِفت الضعَّة واستكانت للضَّيم ، أما الآن ، وقد أفقنا من التخدير الذى شلَّ شعورنا وإحساسنا بالكرامة ، وتذوقنا طعم الكرامة والمجد فلم يصبح

هنالك مبرر لبقاء الوضع المقلوب الذى يجعل من الأساتذة تلاميذ ومن التلاميذ أساتذة ، نريد أن نستعيد كرامتنا العلمية والمعنوية ونسترد مجدنا الفكرى الضائع ، نريد أن يكون لنا ما لغيرنا من حق ، فيما هو خاص بنا وملك لنا دون سوانا ، نريد . . فهل نحن فاعلون » ؟

أقول : وهل يسمع الدكتور سليمان دنيا أولئك الذين يقولون : « لا نريد أن نمنح دكتوراة أزهرية خالية من المراجع الأجنبية لأبنائنا » ؟

هل ستنحل لديهم بعد هذا الكلام المؤمن الوطنى عقدة الخواجة ؟!

* * *

obeikandl.com

الاختلاف فى تقدير المستشرقين

إن أقل ربح ربحه المستشرقون هو تمزيق المفكرين الإسلاميين حولهم ، وتحويل الصراع ضد الغزو الفكرى الأجنبى إلى صراع بين المسلمين حول المستشرقين : أحسنوا أم أساءوا . .

وفى مجلة المعرفة التى كان يصدرها عبد العزيز الإسلامبولى تجد فى المجلد الثانى [1] صورة للصراع بين الدكتور زكى مبارك والدكتور حسن الهوارى ، وكذلك محمد أمين حسونة ، ومن هذا القبيل الصراع حول أصل كلمة « التصوف » بين الشيخ مصطفى عبد الرازق ومحمد لطفى جمعة والإسلامبولى و« مرجليوث » فى مجلة المعرفة . . وكالمعرفة غيرها من المجلات والصحف .

ولا ريب أن الذين تتلمذوا للمستشرقين يكنُّون لهم الاحترام ، بل منهم مبشرون بتعاليمهم ونظرياتهم ، ويلهجون بالثناء عليهم ، وفى مقدمة هؤلاء طه حسين .

● **رأى العقيقى** :

أما الأستاذ نجيب العقيقى فى كتابه « المستشرقون » فإنه يُقَدِّرهم ويُثنى عليهم ، وإن كان يُحذِّر من كتابتهم فى الإسلام وتاريخه ، ويعترف بأن لهم أخطاء فى تفهُّم المذاهب ، فقد جاء فى كتاب « مختارات الحب عند العرب ، لـ « مارتينو » (ص ٥٩) : أن ابن الفارض هو أول عربى طالب بتحرير المرأة .

ونحن لا نعرف كيف فهم هذا بعد أن قام شُرَّاح كثيرون أثبتوا صوفية

---

(١) المعرفة المجلد الثانى ص ١٧٧ ، ٣٠٢ ، ٤١٥ ، ٤٨١ ، ٧٢٥ ، ٧٢٣ ، ٢٢٣ ، ١٢٢١ . وفى التصوف ص ٩٢٤ ، ٧٨٢ ، ٢٦٩ ، ٣٨٩ ، ١٣٥ من المجلد الأول سنة ١٩٣١ م (١٤٣٩ هـ) .

ابن الفارض ، كما تناوله كثير من المستشرقين فحققوا صوفيته ، وجعلوا له مبادىء وأغراضاً ، ونفوا عنه عشقه وهيامه الماديين .

ثم إن الكلمات تختلف من موضع لآخر ، فتزداد قوة أو تخف وقعاً ، فتعدل فى التراكيب ، ولـمَّا لم يحسن بعض المستشرقين الترجمة عمد إلى الاستنتاجات ، فقد ترجم « كازانوڤا » كلمة « أُمِّى » إلى كلمة « شعبى » ، وترجم « كازميرسكى » قول الله للملائكة : ﴿ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ (١) - أى أمام سيادة الإنسان . فترجمها : اعبدوا آدم ، وترجم « هواء » بمعنى « هوى » فى قول الشاعر العربى :

بأبى أنت وأمى من مليكٍ قلَّ عدله وبخيل بالهوا لو كان يُغنى عنه بُخله

ثم قال : « ومما يؤخذ على المستشرقين اعتمادهم على أُصول اللُّغة ، ومعظمُها لا قواعد له ، فيشرحون على الطريقة الكلامية دون معرفة القصد الذوقى منها ، وثمت تعابير عربية أو دخيلة يشق عليهم فهمها ، وخاصة إذا استندوا إلى مَن تقدمهم من مستشرقين ، وقد كتبوها بالحروف اللاتينية التى كثيراً ما لا تفى بحاجة اللفظ العربية » .

« ومن أخطائهم الأصولية (فى اللُّغة) جمع بعضهم « زيت الزيتون » على زيت الزيتين ، وكلمة « لوردين » بدلاً من لوردات لأنها جمع مذكر عاقل ، أو كما جمع « وستنفان » قطاراً على « قُطْران » ، وردَّ « دوزى » بقوله فى هذا : صوابها « قطارات » ، فصححها الشيخ اليازجى على « قُطُرات » ومثل تفسير « كزمير » الأحداث بالغوغاء ، وهم يصححون بعضهم لبعض - كما وقع لـ « دوزى » و« فريتنج » وغيرهما » [فى هذا الجانب أحياناً] .

ثم تحدث الكاتب عن تلامذة المستشرقين من العرب كطه حسين الذى أنكر

---

(١) البقرة : ٣٤

الأدب الجاهلى تقليداً للغربيين حين أنكروا أدبهم الجاهلى وشكوا فيه ، وأنكر عليهم غرورهم وترفُّعهم عن العلماء العرب وتفضيلَهم علماء الغرب عليهم (١) .

ومن تلامذة المستشرقين معتدلون كالدكتور محمد حسين هيكل ، إذ نادى بالاستفادة من مناهجهم العلمية دون أن نغفل أنهم - فيما يذكرونه عن الإسلام - خصوم له قبل كتابتهم ، ولكنه - رحمه الله - ومعظم الذين يقرأون لهم قد تأثروا بما كتبه هؤلاء المستشرقون قليلاً أو كثيراً ، حتى الذين يردون على المستشرقين بعضَ مفترياتهم .

* *

● **المحذِّرون منهم :**

وفى الجانب الآخر لأنصار المستشرقين علماء حذَّروا منهم كالمرحوم الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه « السُّنَّة » ، وكالأستاذ مالك بن نبى فى رسالته « إنتاج المستشرقين وأثره » . . ومن قبلهما كثيرون من الأعلام ، فقد قال عنهم أحمد فارس الشدياق فى ذيل « الفارياق » (ص ٢) :

« إن هؤلاء الأساتيذ لم يأخذوا العلم عن شيوخه ، وإنما تطفلوا عليه تطفلاً ، فوثبوا توثباً ، ومَن تخرَّج فيه بشىء فإنما تخرَّج على القسس ، ثم أدخل رأسه فى أضغاث أحلام ، أو أدخل أضغاث أحلام فى رأسه ، وتوهم أنه يعرف شيئاً وهو يجهله ، وكل منهم إذا درس فى إحدى لغات الشرق ، أو ترجم شيئاً منها تراه يخبط فيها خبط عشواء ، فما اشتبه عليه منها رقَّعهُ من عنده بما شاء ، وما كان بَيِّن الشبهة واليقين حدس فيه وخمَّن ، فرجَّح منه المرجوح ، وفضَّل المفضول » .

---

(١) المستشرقون ص ٢٠٧ ، ٢٠٨

وقال الأمير شكيب أرسلان فى كتابه « الرد على الأدب الجاهلى » (ص ١٠٠) :

« وعلى كل الأحوال لا يقدر أحد أن يقول : إن الشرقيين ليسوا أدرى من الغربيين فى آداب الشرقيين ولغات الشرقيين ، ولا يقدر أحد أن يدَّعى أن « مرجليوث » وغيره من المستشرقين يستطيعون أن يفهموا الكلام العربى أكثر من علماء العرب ، وإن من أحمق الحمق أن نظن أن « مرجليوث » بكونه إفرنجياً صار يميز الشعر المصنوع على لسان الجاهلية من الشعر الجاهلى الأصلى . . » .

« وأما هؤلاء المستشرقون المتنطعون - ولا يطلق هذا إلا على نزر منهم - فإذا عَثروا على حكاية شاردة أو نكتة فاردة - فى زاوية كتاب قد يكون محرَّفاً - سقطوا عليها تهافُتَ الذباب على الحلواء ، وجعلوها معياراً ومقياساً ، لا . . بل صيَّروها محكَّماً يعرضون عليها سائر الحوادث ، ويغفلون أو يتغافلون عن الأحوال الخاصة والأسباب المستثناة ، ويرجع كل هذا التهوُّر إلى قِلَّة الاطلاع فى الأصل ، هذا إذا لم يشب ذلك سوءُ قصد ، لأن الغربى لا يبرح عدواً للشرقى ورقيباً له ، والنادر لا يعتدُّ به » .

* * *

أسلوب المستشرقين فى حقدهم
بين الصراحة والخفاء

إن كتابة المستشرقين عن الإسلام ورسوله - بوجه عام - قد اتجهت اتجاهين ، اتجاه كتَّابهم فى العصور الوسطى ، واتجاههم فى العصر الحديث ، الأول سافر بالخصومة والثانى ملتو غامض .

● **فى العصور الوسطى :**

وذلك بدء عهد الاستشراق ، وقد جنح الكُتَّاب فى تلكم الآونة وعلى رأسهم قادتهم من الرهبان والقساوسة يُصوِّرون الإسلام ورسوله فى صورة مُشوَّهة تقبِّح الإسلام ورسوله فى نظر القراء ، فهى كتابة تستهدف إقامة السدود النفسية والوجدانية حول المسيحيين حمايةً لهم من التفكير فى الإسلام والبحث عنه فى مراجعه الأصلية الصحيحة . ويعلل المستشرق الإنجليزى « مونتجمرى وات » فى محاضرة له بجامعة الكويت سنة١٩٧١ لذلك قائلاً : « إن الأوروبيين فى عصر النهضة كان لا يزال لديهم إحساس بالنقص بالنسبة للمسلمين ، ولذلك عمد مفكروهم إلى تشويه حقائق الإسلام ، فعرضوا الإسلام ، وتاريخ المسلمين فى صورة منفرة .

وقد جاء فى موسوعة « لاروس » الفرنسية خلال العرض لآراء كُتَّاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ممن نالوا من محمد شر نَيْل ما يأتى : « بقى محمد مع ذلك ساحراً ممعناً فى فساد الخُلُق ، لصَّ نياق ، كردينالاً ، لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه ، واستولى القصص الخيالى والخليع على سيرته ، وسيرةُ باهومية « محمد » تكاد تُقيم أدباً من هذا النوع ، وقصة محمد التى نشر « رينو » و« فرانسيسك ميشيل » سنة ١٨٣١ تصور لنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه ».

وفى القرن السابع عشر نظر « بيل » فى تاريخ آى القرآن نظرة تاريخية ، مع ذلك ظلت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه ، على أنه يعترف مع ذلك بأن

النظام الخُلُقى والاجتماعى الذى أقامه محمد لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات (فى المسيحية المعاصرة ، وإلا فهما فى التوراة والإنجيل المنزَّلين على موسى وعيسى) .

وقال « إميل درمنجم » الفرنسى فى كتابه « حياة محمد » (ص ١٣٥ - وما بعدها) : « لما نشبت الحرب بين الإسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم - بطبيعة الحال - وازدادت حدةَ ، ويجب أن يعترف الإنسان بأن الغربيين كانوا السابقين إلى أشد الخلاف ، فمن البيزنطيين مَن أوقروا الإسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم - فيما خلا « جان داماسين » - مؤونة دراسته ، ولم يحارب الكُتَّاب والنظَّامون مسلمى الأندلس إلا بأسخف المثالب ، فقد زعموا أن محمداً لصٌّ نياق ، وزعموه متهالكاً على اللَّهو ، وزعموه ساحراً ، وزعموه رئيس عصابة من قُطَّاع الطرق ، بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً محنقاً أن لم يُنتخب لكرسى البابوية ، وحَسِبَه بعضهم إلهاً زائفاً يُقرِّب له عُبَّاده الضحايا البشرية » .

وإن « جبير دى نوجَن » نفسه - وهو رجل جدٌّ - ليفقد توازنه فيذكر أن محمداً مات فى نوبة سُكْر بيِّن ، وأن جسده وُجدَ ملقىً على كوم من الروث ، وقد أكلت منه الخنازير ، وذلك ليفسر السبب الذى من أجله حُرِّم الخمر وحُرِّم لحم ذلك الحيوان (١) .

« وذهبت الأغنيات إلى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب ، وجعلت المساجد الإسلامية برابىّ ملأى بالتماثيل والصور ، وقد تحدَّث واضع أغنية أنطاكية حديثَ مَن رأى صنم « ماحوم » مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين ، وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء . أما أغنية « رولان » التى تُصوِّر فرسان « شارلمان » يحطمون الأوثان الإسلامية فتزعم أن مسلمى الأندلس يعبدون ثالوثاً مكونا من « ترفاجان » ، و« ماهوم » ، و« أبولون » وتحسب « قصة محمد » أن الإسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج » (٢) .

---

(١) هذه صورة تنم عن الجهل المطبق لأن تحريم الخمر ولحم الخنزير كان فى عهد النبى وهو الذى أخبرنا بتحريم الله لهما ، ولم يُحرِّمهما المسلمون من بعده ، وفى القرآن آيات التحريم .

(٢) أرأيت كيف يتعاون الفنانون فى تشويه سيرة الرسول ودينه فيما يضعونه من أغان ؟!

« وقد ظلت حياة الأحقاد والخرافات قوية متشبِّثة بالحياة ، فمنذ « رودلف دُلُوهَيم » إلى وقتنا الحاضر قام « نِيكولا دكيز » و« وفيفس » و« مرانشى » و« هوتِّنجر » و« بيلْياندر » ، و« پريدو » وغيرهم ، فوصفوا محمداً بأنه دجال ، والإسلام بأنه مجموعة الهرطقات كلها ، وأنه من عمل الشيطان ، والمسلمين بأنهم وحوش ، والقرآن بأنه نسيجٌ من السخافات ، وقد كانوا يعتذرون عن الحديث الجِدِّ فى أمرِ هذا مبلغُ سخافته .

« ومع ذلك فإن « بيير باسكال » من الذين توسَّعوا فى الدراسات الإسلامية فى القرن الرابع عشر ، ومن قبله « بيير » المحترم « ڤنرابل » مؤلف أول رسالة غريبة ضد الإسلام قد ترجم القرآن فى القرن الثانى عشر إلى اللاتينية ، وقد وصف « إنُّوسان الثامن » محمداً يوماً بأنه « عدو المسيح » ، أما القرون الوسطى فلم تكن تحسب محمداً إلا هرطيقاً (١) ، وكان لـ « ريمون ليون » فى القرن الرابع عشر ، ولـ « غليوم بَسْتل » فى القرن السادس عشر ، ولـ « رولان » و« چانييه » فى القرن الثامن عشر ، وللقسيس « دِبْرُجْلى » ، ولـ « رينان » فى القرن التاسع عشر آراء وأحكام مختلفة . على أن الكونت « بُولَنْفِلْييه » و« شُول كوسَّان دبْرسفال » و« دوزى » ، و« سبرنجر » و« بارتلمى سانتيلير » و« دكاسترى » ، و« كارليل » وغيرهم يُظهرون على وجه الإجمال - إنصافاً للإسلام ونبيه ، ويُشيدون - فى بعض الأحيان - بهما . مع ذلك فإن « دْرُوتى » يتحدث فى سنة ١٨٧٦ عن محمد الصادق العف النظيف قائلاً عكس هذا بأسلوب سباب ، لا علم ، كما طعن عليه « فوستر » من قبل ذلك سنة ١٨٢٢ ، وما يزال للإسلام حتى اليوم محاربون متحمسون .

* *

(١) أى جدلى ، والهرطقة : الجدل غير المفيد فيما لا حقيقة له ولا منفعة .

● مردُّ الخصومة :

ومردُّ هذه الخصومة بين الإسلام والمسيحية راجع إلى جهل الغرب بحقيقة الإسلام وبسيرة النبى ﷺ ، كما أن حُمَاة المسيحية حين شعروا بأنها دين لا يوائم [١] طبيعة الغرب الذى عاش أُلوف السنين على تعدد الآلهة ، والذى يدعوه مركزه الجغرافى إلى حياة الكفاح لمغالبة الزمهرير [٢] والضَّنك وسوء الحال ، وأحسوا بأن الغرب سيتفلَّت من المسيحية إلى أقرب دينٍ للفطرة - وهو الإسلام - أسرعوا إلى محاربته وأسرفوا أيمَّا إسراف ، وأرادوا أن يُسقطوا عن نفس الشخصية المسيحية عارَ سقوط « هرقل » وحضارته تحت سنابك [٣] الخيل الإسلامية بافتراء الانحطاط وشتَّى المثالب [٤] على محمد ورسالته وأتباعه - دفاعاً لا شعورياً عن النفس ونتيجةً لمركب عُقدة الاستخذاء والغرور والجهل ، فكان ما رأيناه من العداء السافر فى الأغانى والعظة الأسبوعية والقصة والتأليف التاريخى .

وقد أدَّى هذا اللَّون من الكتابة نتائجه فى صفوف الغربيين ؛ إذْ صرفهم عن دارسة الإسلام والتفكير فيه ، وجمَّد العوام على مسيحيتهم ، ووجه الباحثين عن الرُّوح [٥] الرَّوحى والهدوء النفسى وناشدى [٦] فَيء السعادة وبَرْدها بعيداً عن لَهب الصراع المادى الدائر الرحى - إلى الديانات الهندية والصينية بعيداً عن الروحانية المسيحية التى أصبحت فى قفص الاتهام بعد كثرة الانشقاقات المذهبية والثورات الإصلاحية ، فظهرت « الثيوزوفية » على يد مدام « بلافاتسكى » وقد اقتبستها من البوذية وسيلةً للإخاء العالمى ، وما لبثت أن أصبحت مذاهب ثلاثة عقب موتها [٧] ، واستغل المستعمر العامة نتيجة هذه المفتريات لغزو العالم الإسلامى .

---

(١) يوائم : يلائم ويوافق ويتفق مع .
(٢) شدة البرد .
(٣) السُّنبُك - بضم السين والباء : طَرَف الحافر .
(٤) المعايب
(٥) الرَّوح - بفتح الراء : الراحة والنسيم .
(٦) أى طلاب وباحثون عن . . . .
(٧) « حياة محمد » - الطبعة الثانية - ص ٣٠١٢

على أن هذا الأسلوب لم يكن ذا أثر سيء - بصورة عامة - عند المسلمين الذين لا يقرأون هذه المفتريات ، بل ولا عند القلّة الذين أُتيح لهم أن يستمعوا لها أو يقرءوها ، ذلك لأن الإيمان المستقر بين جوانحهم ما كانت لتزحزحه مفتريات باطلة لا دليل عليها ، بل إن الإغراق فى الافتراءات على الإسلام ورسوله بعث فى بعض المستشرقين طموحاً إلى تبوأ مراكز ريادة حرية البحث وحرية الكلمة.. فأخذوا يكتبون عن بعض الحقائق المشرقة فى جوانب الإسلام وتاريخ الرسالة ، ولم يذروا استرضاء الجماهير المتعصبة فكان لهم من الغمزات واللّمزات شيء يقلُّ أو يكثر حسب حاجة الكاتب إلى رواج بضاعته ، وأشدُّ المستشرقين حدة وحقداً على الإسلام ورسوله وتاريخه الفرنسيون والكاثوليك الذين تحتضنهم فى العالَم جمهورية فرنسا ، ومن أشهرهم « أرنست رينان » و« كيمون » ، و« هانوتو » ، و« ڤولتير » وهم بعد عصر النهضة .

ومن هؤلاء السافرين بالخصومة والافتراء المستشرق « كازيميرسكى » الذى تولى الرد عليه الأُستاذ « أبو الوفا محمد درويش » ، والمستشرقة الآنسة « لورا هيلين سوبريدج » الإنجليزية فى كتابها « أحلام المرأة ورسالتها » ، وقد كتب مقدمته أسقف لندن ومنهم المستر « كاش » فى كتابه « العالم الإسلامى فى ثورة » ، وقد زعم فيه أننا نحن المسلمين نُضفى على محمد ﷺ - مسحة مسيحية ، وقد تولى الرد عليه المستشرق « خ . كمال الدين » فى كتابه « المثل الأعلى فى الأنبياء » ، وقد ترجمه « أمين محمود الشريف » [1] ومنهم المستشرق اليهودى « داود صمويل مرجليوث » المتوفى عام ١٩٤٠

ومنهم « م . سفارى » الذى تابعنا نقد مفترياته فى صلب كتابه « مختصر

---

(١) كما رددت عليه فى كتابى « السيرة النبوية وأوهام المستشرقين » - الناشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

حياة محمد » فى إحدى الدراسات [1] وغير هؤلاء كثيرون . . وأمثالهم فى عصرنا هذا كثيرون ولكنهم لا يستعلنون فى المجتمعات الإسلامية بمفترياتهم إلا عندما يحسون بضعف مجتمع سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وعلمياً كما حدث أخيراً فى أندونيسيا .

* *

● **بعد منتصف القرن التاسع عشر :**

وبعد عصر النهضة كانت يقظة فكرية ، وكان حرص على تقصى الحقائق واكتشاف المجهول من الآثار سواء المطمور تحت الأرض من النقوش والعاديات كالتى تولاها مَن سُمُّوا علماء الآثار ، أو المسطور المغمور المطروح فى آفاق النسيان ، أو فى زوايا الإهمال بالزوايا أو التكايا ومكتبات الأفراد ، من نوادر المخطوطات المبعثرة فى العالم الإسلامى جميعه مكتوباً بالعربية أو الفارسية أو الهندية أو التركية .

وهؤلاء المنقِّبون من أمثال « چوستاف لوبون » فى كتابه « حضارة العرب » ، و« دوزى » فى كتابه « الإسلام فى الأندلس » ، و« سيديو » فى كتابه « فضل العرب على الحضارة الأوروبية فى القرن التاسع عشر » ، و « كارليل » فى كتابه « الأبطال وعبادة الأبطال » ، وقد اتجه اتجاهه وعلى منهجه « هجنز » و« دبفونْبرت » و « بوزْورث سميث » فى إنجلترا ، و« كرِهْل » و« جريمنس » فى ألمانيا ، ومثلهم اللورد « هدلى » الملقب بـ « سيف الرحمن رحمة الله فاروق » الذى أسلم وتوفى عام ١٩٣٥ ، ومستر « كاش » ، والكاتب الإيطالى « كيتانى » الذى هدم الدعاوى المتكررة التى يحتج بها علماء النصارى على الإسلام . . هؤلاء غالباً ما كان يدفعهم إلى البحث وقول كلمة الحق إلا الرغبة فى إظهار معلومات مجهولة هى فى عداد الآثار ، وبغيْبة عن ورثة أهل هذه الآثار والكنوزِ الفكرية المطمورة ، فقد مات أبطالها وخلفوا من

---

(١) السيرة النبوية وكيف حرَّفها المستشرقون : ترجمة محمد عبد العظيم ، ونقد وتحقيق عبد المتعال الجبرى - طبع دار الدعوة بمصر .

بعدهم ذريةً ضعفاء فى مجتمعات أصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، ثم لأن جُلَّ هؤلاء الباحثين - إلا مَن أسلموا - كانوا متحللين من الأديان ثائرين عليها ، فهم يدرسونها للعلم وحده .. ولم يدرُ بخلدهم أن ما يكتبون سيصل يوماً إلى المسلمين ، فيكون شهادةً من أعداء الإسلام لمجدهم الغابر ، والفضلُ ما شهدت به الأعداء ، فيعتزون بهذه الشهادات ، وينشرونها لتحمى الشخصية الإسلامية من التمزق ، والإحساس بالضَّياع والخيبة ، ولتحمى الشخصية الإسلامية كذلك من الشعور بالنقص شعوراً أوْدَى بالبعض إلى الهاوية ، وألقى بهم فى مهامه التقليد للفرنجة حتى كفروا بأنفسهم وبتقاليدهم وأُمتهم ، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا آلاتٍ ومطايا للغربيين بدلاً من أن يكونوا ذوى كرامة شخصية وقومية ، وغدوا أبواقاً للاستعمار والصليبية والصهيونية .

لقد كان أخطر دَوْر لعبه المستشرقون فى حرب الإسلام عملياً هو ما تجلَّى فى بناء المدارس من الحضانة إلى الجامعة ، وهى التى يُعلِّمون فيها الناشئة من أبناء المسلمين ، من كل الطبقات وبخاصة الطبقات ذات الصفة القيادية العالية والوسيطة ، وكذا فى استغلال مهنة الطب والتمريض وعمل المشافى والمستوصفات التبشيرية ، كما أنهم عايشوا المسلمين والعرب فى بلادهم ، فكانوا يحبِّبون إليهم حضارة أوروبا الزائفة ، ويدعون إلى الاختلاط والتبرج والانحلال الخُلُقى باسم الحرية الشخصية .

كما أنهم ينشرون المذاهب الهجينة كالصليبية والعلمانية والوجودية ، ومَن افتتن بهم لقنوه إنكار نبوَّة محمد ﷺ .

ثم خلف من بعدهم خلف أرادوا حرب الفكر الإسلامى بصور خفية مدروسة ، وكان لهذا أساليب شتَّى .

* * *

أساليب الحرب الفكرية الخفية

١ - إضعاف الفصحى وترويج العامية :

ومن أساليب الحرب الفكرية الخفية العمل على إضعاف الفصحى ونشر العامية ، ولهذا سلك المستشرقون عدة أساليب .

١ - فهم ينشرون العامية ويشجعون التحدث بها فى المجالات الرسمية وفى المساجلات الأدبية ، وفى هذا مزايا جمة : فهى تمزق الوحدة اللُّغوية ، وقد شاهدتُ فى موسم الحج أن العربى يجلس إلى جوار زميله العربى فضلاً عن المسلم غير العربى ، وقد اتسعت الهوة بين اللَّهجات فأصبح التفاهم بين الحجاج العرب والمسلمين عسيراً ، مما أفقد المسلمين القدرة على التفاهم فيما بينهم على عمل مُجْد ، فتراصُّوا حول الكعبة فى هيئة تشبه تجاور قطع الصخور التى جرفها السيل العرم إلى البطحاء ، لا يجمع بينهما نظام ، ولا يتجمع منها بناء يفيد .

وإذا تمزقت الوحدة اللُّغوية إلى وحدات متنافرة ، وغير متعارفة ، سهل مع الزمن إخضاعها بجهد أيسر ، وهذا يفسِّر لنا لماذا اهتمت فرنسا بفرنسة مستعمراتها فى إفريقيا لغةً وعادات ، وأصدرت مرسومها « الظهير البربرى » أى أنه لتوسيع الهوَّة بين المسلمين .

ومن هنا نعلم لماذا حاربت فرنسا حركة التعريب التى قامت فى الجزائر بعد الاستقلال ، ونعرف خطر إهمال أطفالنا للعربية فى المهجر .

ومن نماذج المجهودات التى بُذلت فى سبيل هذا ما كتبه « نللينو » عن اللُّغة المصرية العامية (ميلانو سنة ١٩٠٠) ، وكتاب المقامات العادلية فى اللَّهجة المراكشية لـ « لويس ماشويل » سنة ١٩٢٢ ، وقد نشر « هنس ستوم » الألمانى (١٨٦٤ - ١٩٣٥) عدة مصنفات .

(أ) فى اللُّغة البربرية واللَّهجات المغربية (طبعة ليبزغ) سنة ١٨٩٣

(ب) قواعد اللَّهجات العربية المستعملة فى تونس (ليزيغ ١٨٩٦) .

(جـ) أساطير البرابرة سنة ١٩٠٠

(د) العامية فى الجزائر للدكتور « نبراون » .

(هـ) أساطير ومنظومات من تونس (١٨٩٤) .

كما نشر الدكتور « براون » : « العامية فى الجزائر » ، و« برجستراسر » (١٨٨٩ - ١٩٣٣) : « اللَّهجات العربية العامية فى سوريا وفلسطين » سنة ١٩١٥ ، و« وت » الهولندى (١٨١٤ - ١٨٩٩) : « أصول اللُّغة السورية العامية » ، وكان « منسنج » الهولندى المولود سنة ١٩٠١ أستاذ اللُّغة العربية الحديثة فى جامعة لندن سنة ١٩٣٨ ، وقد ألَّف كتاباً عنها ، وألَّف « برتلمى » كتاب « لغة حلب العامية » ، ونبذة فى لهجة القدس سنة ١٩٠٦ . كما قام « س . هيللسون » الإنجليزى بوضع كتاب عن العربية السودانية ، وكتاباً آخر لمفردات اللُّغة السودانية ، مع أنه يتكلم العربية الفصحى ، ونشر أغانى البقارة طبقاً للنوتات والأسطوانات السودانية . .

وفى البرتغال قام « دى كاستل برانكو » مع أحد الرهبان البندكتيين بوضع كتاب قواعد اللُّغة الكلدانية العامية طبقاً لما كان يحكى بنينوى .

وألف « كارل فولرس » الألمانى الذى كان فى مصر كتاباً عن اللُّغة العامية المصرية ، كما ألَّف « ليونيل غالا » كتابه عن « لُغة وأدب البربر » ، وقد أثار عملاء الاستعمار فى عام ١٩٨٠ ، ممن لهم انتماء إلى أصل بربرى فى جامعات المغرب مشكلة اللُّغة البربرية مطالبين بأن يكون لها كرسى فى الجامعة مثل اللُّغة العربية واللُّغة الفرنسية .

* *

● **وفى سوريا ولبنان** :

ظهر كتاب « قواعد اللَّهجة اللبنانية السورية » تأليف الأب « روفائيل نخلة » ألَّفه بالفرنسية وجعل النصوص العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية ، وقد طبع فى المطبعة اليسوعية ، كما نشر الأب اليسوعى « التحفة العامية فى قصة فنيانوس » تأليف « شكرى الخورى » .

ثم ظهر للدكتور « أنيس فريحة » أستاذ اللغات السامية فى الجامعة الأمريكية ببيروت كتاب سماه « تبسيط قواعد اللُّغة العربية » وتبويبها على أساس نطقى جديد ، دعا فيه إلى أن ينتقل العرب إلى الكتابة بالعامية ، وبالحرف اللاتينى .

وهذه الدعوة من شأنها أن تخلق مشكلة جديدة فى التعليم ، وتقطع حاضر العرب ومستقبلهم عن ماضيهم ، وتنفذ المآرب التنصيرية الاستعمارية التى أرادها الاستعمار قديماً ، فإن العربية الفصحى إذا هُجِرت تحوَّل القرآن إلى كتاب عقيم محبوس فى المسجد للترنم به ، لا ليكون منهج حياة ، شأنه فى هذا شأن اللُّغة اللاتينية فى الطقوس الكنسية الكاثوليكية .

ودعوى التيسير هذه تتجاهل أن الإملاء بالعربية أيسر وأكثر انضباطاً من الإملاء والكتابة فى اللُّغتين الفرنسية والإنجليزية اللتين تكثر فيهما الحروف التى تُكتب ولا تُنطق ، والكلمات التى لها نطق يختلف عن الهجاء .

بل إن حرفاً مثل (U) فى الإنجليزية يُنطق بثلاث عشرة طريقة ، نتيجة لوضعه فى كلمات مختلفة يوجد بها ذلك الحرف مثل (Noun - Four - Puild - Full - But) .

ومن الحملات ضد العربية - باسم التيسير - الدعوة إلى إهمال قواعد الإعراب ، وتسكين أواخر الكلمات ، ومن البدهيات - عند علماء اللُّغة - أن الإعراب فرع المعنى .

٢ - وهم يَسْخَرُون بقواعد العربية الفصحى وممن يتحدثونها ، ويكتبونها ، وقد تأثر بهم أدباء العصر كرشدى صالح فى كتابه « رجل فى القاهرة » حين أخذ يتهكم بالفصحى على لسان المتحاورين فى قصته ، وهكذا لويس عوض ، الذى فتح له « الرئيس السادات » باب النشاط فى مجلة الجمهورية ، ثم سيطر على توجيه الحملة على العربية فى صحيفة الأهرام ، حيث تبوأ بها مكاناً رفيعاً ، وقد أصبح للأدب الشعبى كرسى بكلية آداب جامعة القاهرة ثم فى غيرها ، وقد قال المستشرق « برينو » لطُلابه فى درس اللُّغة العربية : « أتريد يا صاح أن تتعلم الكلام مع الأهالى الذين حولك ، وأن تختبر المسلمين فى

زياراتك ، لتعرف ما يهمك ؟ لا تظن أنى سأعلمك لغة القرآن فهذه اللُّغة قد ماتت ولا يتكلم بها أحد فهى « لاتينية العرب » ، وهى اللُّغة التى أنزل الله بها كتاب المسلمين ، وهى لُغة الصلوات والاستغاثات والتمنيات أحياناً ، وهى كذلك المستعملة فى جنَّة « محمد » ، وسأحبِّبُ إليك دراستها فى المستقبل إذا أردت أن تتذوق حلاوة الاجتماع بالحور العين » (١) .

ولقد دعا لويس عوض وآخرون من خصوم الإسلام ، أو المضبوعين بثقافة الغرب ، إلى كتابة القرآن وترجمته إلى العامِّية ، فذلك كفيل بمحوه خلال قرنين على الأكثر ، كما حدث للإنجيل والتوراة حين ترجما إلى لغة غير لغتهما الأصلية ، فذهب رُواؤهما .

وقد يقال : إن العربية لغة مزدوجة ، العامية والفصحى ، وهكذا كل اللُّغات الحية فى العالم ، فللسُّوقة لغة عامِّية ، وللعلم والأدب لغة خاصة كاللُّغة العربية الفصحى .

ومن المقارنات الغريبة أن بعض دعاة « القومية العربية » - كـ « ساطع الحصرى » - يتنكر للعربية الفصحى ، وكأن هؤلاء يريدون بـ « القومية العربية » البديل للإسلام ، فإذا انتهى الإسلام سقطت معه لغته .

* *

٢ - دراسات عن الفِرَق الإسلامية :

بين المسلمين فراغ فى مجال دراسات المذاهب والفِرَق الإسلامية المعاصرة .

وبما للمستشرقين من إمكانيات لا تتوافر لدى الباحثين المسلمين ، فإنّهم استطاعوا أن يقدموا دراسات عن الفِرَق الإسلامية ، بطريقة مغرضة تزيد فى اتِّساع الهوة التى بين المسلمين ، ومن ذلك كتاب « الدروز وديانتهم » لـ « دى ساسى » الفرنسى (١٧٥٨ - ١٨٣٨) وعن كتاباته أخذ بعض

---

(١) مقال لحسين الهراوى - المعرفة : المجلد الثانى - ص ١٢٠

الكُـتَّاب والصحفيين ما جعلنى أكره الطائفة وفيهم مَن يجمعنى بهم آصرة نسب وقربى ، حتى قابلت فى موسم الحج (١٣٩١ هـ - فبراير ١٩٧٢) مَن صحَّحوا لى المعلومات المنشورة عنهم ممن خالطوهم ويعيشون فى موطنهم .

ولنفس الغرض نشر « ديفرمرى » كتاب « الإسماعيليون وسورية » ، و« ديسو » : « تاريخ النصيريين وعقيدتهم » عام ١٩٠٠ بالرغم من انقراضهم ، كما نشر هيار (١٨٥٤ - ١٩٢٧) بحثاً عن « الشعر الدينى لدى النصيريين » .

* *

٣ - التدرج بالرواية :

قد ينقل المستشرق خبراً ينسبه إلى الرسول ﷺ أو القرآن ، ويذكر أن النص الذى كشفه لا دليل على إثباته ولا يُعلم تاريخه ، ثم يأتى بعد حين مستشرق آخر ويروى هذا الخبر المشكوك فيه دون أن ينصَّ على أنه موضع شك ، ثم يأتى آخر بعد برهة لينقله عن الثانى ذاكراً ثبوته وموثِّقاً له . . وهكذا يأتى الباقون من الدارسين ينقلون عن المرجع الأخير هذا النص ، ويعقِّبون عليه ، ويستنبطون منه ما شاء لهم الهوى .

وقد يشير أحدهم إلى فكرةٍ ما من طرف خَفِىٍّ ، ويليه آخر فيقرر أن هذه الفكرة جائزة ، ويأتى ثالث فيرفع هذا الجواز إلى مرتبة النظرية ، وأما الرابع فيخلق من النظرية « حقيقة » . . وهكذا تتطور الفكرة أربعة أطوار أو خمسة حتى ينتهى بها المطاف إلى أن تصبح حقيقة مقررة ، وفى مقدمة فرسان هذه الحلبة اليهودى « مرجليوث » الذى يجمع بين الجهل وسوء الطويَّة ، وكذلك « منجانا » الذى حاول أن يشكك فى القرآن ففشل ، فلجأ إلى القول بأنه عثر على ترجمة سريانية للقرآن سقط منها بعض أجزاء منه ليوهم القارئ أنه ربما ضاع شىء منه وقال : إنه لا يعلم تاريخه ، ثم جاء بعده « مرجليوث »

---

(١) المعرفة : المجلد الثانى ص ١٢٠ مقال لحسين الهروى .

فقال : إن « منجانا » عثر على نسخة سريانية عريقة فى القِدَم سقط أجزاء منها . . . [1] .

* *

٤ - التجاهل للحقائق :

قد يتجاهل كبار الكُتَّاب الغربيين - فى مواقف العظمة المقارنة بين شعوب أو أديان أو فلسفات - ما قد يكون للإسلام من رأى فى هذه المواقف التى يكتبون عنها ، ولا يكتبون إلا القليل أو التافه عنه حتى يبدو ديناً غير جدير بالوقوف عنده ، فمثلاً الكاتب الأمريكى « ف . س . ك . نوثورب » فى دراسة له سمَّاها « بحثاً فى تفهم العالم » يقع فى ٤٩٦ صفحة لم يتحدث عن العرب والمسلمين فيه إلا فى اثنتى عشرة صفحة فقط ، بينما يمثلون سُبُع الجنس البَشرى ، وهكذا المؤرخ « برتراند رسل » فى كتابه « تاريخ الفلسفة العربية » لم يخصص للإسلام ونبيه منه إلا ست عشرة صفحة متفرقة من مجموع صفحات الكتاب التى يبلغ عددها ٨١٦ صفحة (الطبعة الثالثة . لندن ١٩٤٨) . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ليتسع المجال لتصوير النبى محمد ﷺ على خلاف صورته التاريخية ، وتتجاهل القرآن ولا تعترف بوجوده ، وأحرقت نسخه العربية فى البندقية سنة ١٣٥٠ م ، وحرَّم البابا « اسكندر » طبعه وترجمته ، وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين كانت ترجمات القرآن تُشفع بمقدمات أو تعليقات أو تذييلات للرد على القرآن ، أو تجريح النبى ﷺ [2] .

* *

٥ - تصيد الروايات الضعيفة والمنكرة :

ويعتمد المستشرقون على الروايات الضعيفة التى أسقطها علماء المسلمين وبيَّنوا ضعفها بعد دراسات مستفيضة وتقصٍ للحقيقة فى شأنها ، وهى روايات أصلها دسَّه أحبار النصارى واليهود على الإسلام بوسائلَ شتَّى ليس هنا مجال الحديث عنها ، وربما كان هؤلاء المستشرقون يعرفون كتب رجال الحديث ،

---

(١) المثل الأعلى فى الأنبياء ص ١٦ - ١٨ (٢) المستشرقون والإسلام ص ١٧٨

والكتب التى تولت بيان الحديث الضعيف أو الموضوع أو الصحيح ، ولكنهم مع سبق الإصرار على الجناية والخيانة العلمية ينقلون ما ينقلون ، وفى نقد كتاب « م . سفارى » - الذى بين أيدينا - سيرى القارئ كيف كان اعتماده على أضعف الروايات التى رواها الواقدى الذى قال عنه الإمام الشافعى : « كتب الواقدى كلها كذب » ، وقال عنه ابن خلكان فى ترجمته : « وَضَّعوه فى الحديث وتكلموا فيه » [1] أى إن روايته غير جديرة بالقبول والتلقى .

وهكذا يسند المستشرقون إلى النبى ﷺ أحاديث لم يقلها وهى كلمات مروية لبعض المسلمين ، فقد ذكر المستشرق الأمريكى الدكتور « خوستان نون جرونباوم » أن رسول الله ﷺ قال : « اختلاف أمتى رحمة » وحقيقة هذه الجملة أن عمر ابن عبد العزيز قال فى مجال الحديث عن اختلاف بعض الصحابة فى اجتهادهم : « ما يسرنى باختلافهم حُمُر النعم ، ولو كان رأياً واحداً لكان الناس فى ضيق » ، فنقل العامة هذا المعنى فى حديثهم عن أئمة المذاهب الإسلامية وقالوا : اختلافهم رحمة ، وألَّف أحد الفقهاء كتاباً يلخص الخلاف بين الأئمة فى أحكام الفقه سماه : « رحمة الأمة فى اختلاف الأئمة » فعدَّ الفرنجة هذا حديثاً نبوياً وهو ما لم يقله النبى ، وهكذا قل فى المستشرق الأمريكى الآخر الذى نسب إلى النبى ﷺ هذه العبارة : « تتغير الأحكام بتغير الأزمان » ، وهو فى الحقيقة ما لم يقله النبى ، وإنما هوكلمة للإمام مالك : « يجدُّ للناس من الأقضية بمقدار ما يُحدثون من أحداث » ، والفَرْق بين المعنيين واضح وعظيم ، إذ أن مبادئ الإسلام يجب أن تبقى حاكمة للزمان وليست محكومة بالأزمان .

* *

٦ - المقاييس المادية :

ومن أخطاء المستشرقين محاولة إخضاع القيم الروحية الإسلامية للمقاييس المادية التى تختلف عن طبائعها أتمَّ اختلاف .

---

(١) المثل الأعلى فى الأنبياء ص ٢٢

وقد حاول « لامانس » تفسير التاريخ العربى الجاهلى والإسلامى مضفياً عليه تصوُّره الماثل لمدنيَّة القرن العشرين بألفاظها مثل : الضريبة على الدخل - وزارة الله - جائزة مونتينيوس - بنك مكة . فهز الصورة التاريخية حتى تشوهت ، وهكذا « دنيس سورا » ، الذى أرجع الفكر الدينى إلى رغبة نفسية فى إشباع الإحساس بالحاجة إلى الخلود والحياة بعد الموت ، وإلى وجود إله رهيب معط ، فهو يفسر الأديان تفسيراً مادياً .

* *

٧ - الإلحاد والتشكيك فى النبوات :

بعض المستشرقين ملحدٌ ، يجحد الأديان ويكفر بمُثلها العليا ، فهو لا يتورع عن انتقاصها بكل وسيلة لأنه حرب عليها ، ولا يرعوى عن الكذب ، وهذا هو تفسير ما نجده من المستشرقين حين يهاجمون عيسى ويتهمونه بالجنون ، وبأنه هو وأمثاله موسى وداود أشخاص غير تاريخيين ، ومن ثَمَّ فإن مهاجمتهم للنبى محمد تكون بُغية التجريح والهدم ، لا البحث عن الحقيقة التاريخية أو العلمية ، ومن هؤلاء « ڤولتير » الذى هاجم الكهنة واتهمهم بالوثنية فى مسرحيته الأولى « أوديب » عام ١٧١٨ م ، ثم هاجم الأنبياء فى شخص محمد ﷺ بمسرحيته « التعصب » عام ١٧٤١ م وأهداها إلى البابا « بنوا الرابع عشر » للتمويه بأنه لا يريد إلا محاربة محمد وحده .

والعجيب أن نرى باكستانياً فى ندوة إسلامية عقدت فى لاهور فى نهاية ديسمبر ١٩٥٧ - ويناير ١٩٥٨ وقد وقف ينكر النبوات وبخاصة نبوة محمد ﷺ زاعماً أنه كان يعلم قصص الأنبياء ممن كانوا فى الجزيرة من النصارى واليهود [١] وقد جهل الباكستانى - أو كفر - بقوله تعالى عن قصص القرآن : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ [٢] ،

---

(١) المستشرقون والإسلام ص ٥٨٩ (٢) يوسف : ٣

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ (١) ، وقوله سبحانه : ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ﴾ (٢) ، كما أنكر الباكستانى اختصاص الوحى بالأنبياء وجهل أن الوحى بمعنى الإلهام معنى لُغوى كإلهام الحيوان ما فيه صلاح حياته ومعاشه ، وأما الوحى السماوى فاصطلاح شرعى انفرد به الأنبياء : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ (٣) .

ويلحُّ المستشرقون على نزع ثوب النبوة عن سيدنا محمد ﷺ وإلباسه ثوب البشرية فى صورتها الحيوانية الدنيا لأدنى مناسبة وبصورة خفية كما سنرى فى حديث « سفارى » عن كتاب هرقل وعن وساطة أبى سفيان فى فتح مكة ، وفى المؤاخاة بعد الهجرة ، وفى زواج ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وكما فى تصوير « سفارى » لأمهات المؤمنين عند ذكره زواج ريحانة رضى الله عنها .

وهذا التشكيك تسرَّب إلى كل المقررات الإسلامية حتى الأمجاد التاريخية التى اطمأنت بها وإليها قلوب المسلمين .

وقد جرى تلاميذ المستشرقين فى هذا المضمار شوطاً كبيراً ، تلمح هذا فيما كتبه طه حسين - على سبيل المثال - فى كتابه « الشيخان » حيث يقول : « وأكاد أجزم » و« وإنى لأشك » . . . إلى آخر هذه العبارات الماكرة لزلزلة اليقين .

* *

٨ - الطعن غير المباشر :

قد يعمد المستشرق إلى الكتابة عن محمد ﷺ ورسالته تحت عنوان دراسة مغايرة لموضوع « محمد ورسالته » ، ولكنه ينزلق إلى الموضوع لأدنى ملابسة ، فمثلاً المستشرق الروسى « أغناطيوس كراتشكوفسكى » فى كتابه « تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب » الذى ترجمه الدكتور صلاح الدين هاشم ونشرته الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية يقول : « إن القرآن هو جَماع تلك

---

(١) آل عمران : ٤٤ (٢) هود : ٤٩ (٣) الشورى : ٥١

المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع ، وهى تمثل نموذجاً عاماً لمستوى الثقافة العام فى هذا المجال [١] .

ولا شك أن كلامه باطل لأمور :

أولاً : لأن دارس القرآن يرى فيه معلومات هى إجابةٌ عن أسئلة جهلها العرب ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ . . ﴾ [٢] ، ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ [٣] ، ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ . . ﴾ [٤] ، ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ﴾ [٥] ، ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ . . ﴾ [٦] ، ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ . . ﴾ [٧] .

ثانياً : لأن بعض العرب لم يكونوا على مستوى إدراك النصوص القرآنية ، فكانت تنزل الآيات تبسط شرح المراد بسبب انخفاض مستواهم عن مستوى اللُّغة القرآنية ، كالرجل الذى لم يفهم المراد من قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ ﴾ [٨] ، فنزل قوله سبحانه : ﴿ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [٩] ليبين أن لفظ الخيط كناية عن الليل والنهار ، وليس حقيقة العقال الأبيض والأسود .

ثالثاً : لأنه لو كانت هذه المعلومات القرآنية فى مستوى الثقافة العامة لكان المتعلمون وكُتَّاب ديوان كسرى وقيصر ، والرهبان أقدر على صوغ كتاب أرفع من القرآن وأغزر مادة ، بفضل امتياز التعلُّم على الأُمِّية التى كان عليها محمد رسول الله ﷺ ، ولكن هذا هو ما لم يحدث بالرغم من المعارضة للنبى ، ومن تحدِّيه لكافة الناس أن يأتوا بقرآن مثله . .

وهكذا كان « أغناطيوس » يذكر المعلومات الفنية ويخلطها بأخرى تزرع الشكوك فى أن القرآن وحى من الله أنزله على محمد ﷺ - والمستشرق - بحسبه أن يجعل فى الكتاب كله نقطة أو نقطتين من السُّم غارقتين فى العسل ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٦ (٢) الإسراء : ٨٥ (٣) طه : ١٠٥
(٤) البقرة : ١٨٩ (٥) البقرة : ٢١٩ (٦) المائدة : ٤
(٧) النساء : ١٧٦ (٨) ، (٩) البقرة : ١٨٧

لأنهم لا يصدرون كتاباً واحداً ، وإنما يُصدرون بالمئات توزع فيها السموم المنوَّعة ، فتترسَّب فى المجتمع الإسلامى شيئاً فشيئاً حتى تُمسى ركاماً من الضباب الحاجب عن رؤية الحقيقة الإسلامية .

وقد أثار الكاتب انتباه قرائه إلى أنَّ بالقرآن مصطلحات جغرافية موجودة بالكتب السابقة ، ليوقع فى الروع أنه مسروق منها ، وتناسى أن القرآن نفسه قال عن ذاته : ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ (١) ، بل إن المنطق السليم ليوجب في هذه الحالة أن نقول : إن تشابه النصوص فى الإسلام والأديان قبلَه دليلٌ على أن الدين من عند الله وأن الإسلام دينٌ حق لأن الله يقول : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ (٢) .

وإذا كان الله قد تكفَّل بأرزاق الناس وجعلهم شركاء فى رزق أجسامهم فهل يفرِّق بينهم فى رزق الروح وغذائها .

* *

٩ - التضليل عن المراد بالأسلوب .. أحقيقة أم مجاز ؟

استغل المستشرقون طبيعة اللُّغة ، وأن فيها المجاز والحقيقة ، وفيها اللُّغة الفصحى والعامية ، فيعمد بعضهم إلى اللَّفظ من ألفاظ القرآن أو السُّنَّة فيفسره كما شاء له الهوى ، فما كان المراد منه حقيقة الدلالة اللَّفظية قال إنه مجازى ، وما كان مجازياً يدل السياق على إرادة المجاز منه قال فيه : إن اللَّفظ على حقيقته .

والمعنى اللُّغوى يكون واضحاً ولكن قد يفسر المستشرق الكلمة كما هى فى اللَّهجة العامية ليفر من الحقيقية ، طبقاً لهوى المستشرق الذى يريد تشويه حقائق الإسلام وإنتاجه .

● **أمثلة :**

ذكر « أغناطيوس كراتشوفسكى » أن الله ذكر السماء بناءات مادية فقال : ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ (٣) ، ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ (٤) فأخذ « كراتشوفسكى »

---

(١) المائدة : ٤٨ (٢) الشورى : ١٣

(٣) النازعات : ٢٧ (٤) الطور : ٥

بظاهر اللَّفظ ، ولعل مرجع هذا هو جهله الاستعمالات القرآنية للُّغة ، فالملاحَظ أن كلمة « بنيان » يستعملها القرآن فى البنيان المادى ، وقد وردت سبع مرات بهذا المعنى ، وحين ورد « بناءً » صحب ذلك قرائن صارفة عن إرادة البنيان المادى ، ودالَّه على إرادة البناء المجازى ، مثل : « نبنى الجبل » ، و« بناء الأُمة » ، وعلى كل حال فإن بناء السماء مادى وإن لم يكن من الحجارة المعروفة أو بوسائل البناء المعروفة لدينا .

وفى سورة « الشرح » يأخذ « كزايميرسكى » و « م . سفارى » على القرآن قصة انشقاق صدر النبى محمد ﷺ ، ويفسرون : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ (١) بمعنى انشقاق الصدر ، وبهذا يحرفون اللُّغة الفصحى إلى مدلول اللَّهجة العامية .

* *

١٠ - التفسير التاريخى الخاطئ :

وقد يكون التحريف لحقائق التاريخ المروى فى القرآن جهلاً بتاريخ الأُمة العربية وطبيعة حياتها الاقتصادية والاجتماعية قبل الإسلام . . ومثال هذا ما جاء فى كتاب « كراتشكوفسكى » عن « النسىء » إذ فسَّره بالفرق بين الشهر القمرى والشهر الشمسى ، أو السنة القمرية والشمسية ، ولو علم أن العرب كانوا ينسأون - أى يؤجلون - الشهور الحُرُم لِتُتَاح لهم فرصةُ الحرب فى الأشْهرِ الحُرُم لما وقع فى هذا الخطأ .

وربما عرض المستشرقون الواقع الإسلامى فى صورته التى يعرفها المسلمون ، ثم يسلطون على هذه الصورة - فى حرص وحذر - سُحُباً رقيقة ماكرة لا تكاد تُرى تحمل فى طياتها ألواناً معتمة تتكاثف شيئاً فشيئاً حتى تطمس معالم الحقيقة دون أن يتنبه لك أحد إلا بعد أن يُقضَى الأمر وتفوح رائحة الكذب والافتراء (٢) .

---

(١) الشرح : ١

(٢) النبى محمد : لعبد الكريم الخطيب ص ٣٤١ - الطبعة الأولى ، دار الفكر العربى .

١١ - التحريف للنُّصوص :

ومن فرسان هذا الأسلوب « جولد تسيهر » اليهودى المجرى فقد روى عن الزهرى أنه قال : « إن هؤلاء الأمراء أكرهونا على كتابة الأحاديث » - أى تدوين السُّنَّة النبوية ، فحرَّفها « جولد تسيهر » إلى لفظ : « أكرهونا على كتابة أحاديث » ، وفرق بين « أحاديث » وبين « الأحاديث » ، فلفظ « أحاديث » يجعل قرَّاء الحديث يشكُّون فى صحة الحديث الذى يقرأونه ، ويوهمنا أن الأُمراء حرَّفوا الدين فأكرهوا العلماء على كتابة « أحاديث » غير الحق .

وهكذا حَرَّف « جولد تسيهر » قول وكيع عن زياد بن عبد الله : إنه أشرفُ من أن يكذب . فقال « جولد » إنه كان مع شرفه فى الحديث كذوباً ، فوكيع يجعل زياداً ثقة ، و« جولد تسيهر » يجعله بتحريفه غير ثقة ، وبهذا ينقلب المعنى إلى الضد [١] .

* *

١٢ - الأفكار السائدة فى المجتمع الغربى كقاعدة للفكر :

عقب الدكتور « سنوك هـ . فونجة » على كُتَّاب السيرة الإفرنج فقال : « إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضىٌ عليها بالعقم إذا سُخِّرت لأية نظرية أو رأى سابق » .

وكثيراً ما يصدر المستشرق عن أفكار سائدة فى عصره ومسلَّمٍ بها بين قومه ، فمثلاً : كان الأوروبيون - وحتَّى منتصف القرن العشرين - يعتقدون أن الحضارة الإغريقية هى أصل الحضارة الأوروبية ، وأن أوروبا وارثةُ هذه الحضارة وناشرتها فى العالمين .

ونشأ عن هذا أن المستشرق « چاستون ڤييت » الفرنسى ، مدير المتحف الإسلامى بالقاهرة سابقاً ، عزا - فى كتابه « مجد الإسلام » - انحدار المجد

---

(١) مصطفى السباعى : السُّنَّة ص ٢٤ ، ٢٥

عن الأمة الإسلامية إلى أن حضارتها لم تسلك مذاهب الحضارة الإغريقية كما سلكتها أوروبا ، وجهل أن أوروبا - اليوم - على مستوى حضارى أرفع من المستوى الإغريقى القديم ، وقد سلكت مسلكاً لا يُرضى فلاسفة الإغريق ، فأفلاطون - الذى كان يضع الشعراء فى منزلة وضيعة - يُمثِّل الآن عهداً مزرياً ، لأن أوروبا تُكرِّم الشعراء والفنانين الآن ، وأفلاطون - الذى كان يؤمن بالتمايز الطبقى ، ويجعل للحكم عناصر وأسراً خاصة يجرى فى عروقها دم خاص - أصبح مثار السُّخرية ، إذْ سادت « البروليتاريا » نصف أوروبا الآن وحكمتها دون أن يقدر أحد على منازعتها السُّلْطة أو حتى مجرد الرأى والفكر أحياناً .

بل إن حضارة أوروبا المعاصرة لا تمتُّ إلى الإغريق بصلة ، فقد قال الأستاذ « بريفوت الإنجليزى » فى كتابه « تكوين الإنسانية » : لم تكن إيطاليا مهداً لحياة أوروبا الجديدة ، بل إسبانيا « الأندلس » ، لأن أوروبا كانت قد بلغت أشدَّ أعماق الجهل والفساد ظلمةً ، بينما العالم العربى (بغداد - القاهرة - قرطبة - طليطلة) كانت مراكز الحضارة والنشاط العقلى ، ومن ثَمَّ ظهرت الحياة الجديدة التى تـمَّت فى شكل ارتقاءٍ إنسانى جديد .

ومن هذه المسلَّمات أيضاً ما يسمى « المنهج العلمى » ، ووزن كل أمر بميزان العقل وحده . . وجرياً على هذه القضية رفض معظم المستشرقين الإيمان بمعجزات الأنبياء ومعجزات محمد ﷺ خاصة ، فاتجهوا إلى تأويل المروىِّ منها تأويلاً يتَّفق والسنن الطبيعية ، أو يتفق مع خيط الفكر العقلى المجرد ، فإن لم يتفق مع المنطق العقلى أو مع السنن الطبيعية أنكروه ، وسنرى هذا فى كتابة « سفارى » التى حققناها ونقدناها فى كتابنا « السيرة النبوية وكيف حرَّفها المستشرقون » .

وهذا المنهج ظهر فساده ، وهتف ببطلانه المسيو « برجون » فأعلن فشل العقل فى الاستدلال بالفكر ، وقد قفا أثره فى البحث بعض الباحثين عن الحق فاهتدوا إلى الإسلام وكتبوا يهاجمون ما كانوا عليه من دين منحرف عن الحق ، قلَّدوا فيه الآباء تقليداً أعمى ، ومن هؤلاء المستشرق

الفرنسى « إيتين دينييه » فى كتابه « أشعة خاصة بنور الإسلام » ، وقد ترجمه إلى العربية راشد رستم ، وقد أسلم وتسمى « ناصر الدين محمد » وأصدر كذلك كتاب « الشرق فى نظر الغرب » و « الحج إلى بيت الله الحرام » ، و« حياة محمد » .

ومن هؤلاء المنصفين كذلك المرحوم « كرستيان شرفيس » أحد تلامذة « أوچست كومت » ، ومثلهما « اللُّورد هيدلى » ، و« خ . كمال الدين » الذى ألَّف « المثل الأعلى فى الأنبياء » ... وغير هؤلاء كثيرون فى أوروبا وأمريكا ، كما أن من الأفكار السائدة التى كوَّنت مزاجاً خاصاً للأوروبى تجاه الإسلام ما توارثه فى المدرسة والبيت والكنيسة من مفاهيم خاطئة ، وأفكار سيئة ومُغرضة عن الإسلام .

* * *

تزوير الحقائق التاريخية

(أ) حرق مكتبة الإسكندرية :

ومن هذا القبيل ما زعمه « سفارى » وأضرابه من أن عمرو بن العاص أحرق مكتبة الإسكندية بناء على أمر عمر بن الخطاب ، وذلك ليشغلوا بالنا عن إحراق « الكاردينال كسيمنس » دور الكتب البديعة التى أقامها المسلمون بالأندلس ، وعن إحراق وإغراق التتار للمؤلفات الإسلامية وعن سرقة الغرب مكتبات المساجد .

وهذه فرية كاذبة تنفيها طبيعة الإسلام الذى أول نص نزل فى دستوره : « اقرأ » ، وينفيه واقع التاريخ الإسلامى الذى أبرز مظاهره بعثُ التقدم العلمى فى العالم وحمل لوائه إلى البشر دون تمييز طائفى ولا عنصرى ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم فى محاضراته لنا فساد هذه المقالة ثم نشرها وتناول الرد عليها فى كتابه « تاريخ الإسلام السياسى » ، وقد ناقش كثير من الفرنجة قضية حرق مكتبة الإسكندرية ، ومن هؤلاء « چيبون » و« بتلر » و« سيديو » و« وچوستاف لوبون » وغيرهم ، وفنَّدوا القول بإحراق عمرو ابن العاص للمكتبة وقالوا :

١ - إن هذه الرواية تخالف التقاليد الإسلامية ، لأن العرب حملوا لواء المعرفة فى كل فن وفى كل عصر ، وراوى إحراق المكتبة يذكر فى روايته أن عمرو بن العاص كان يستمع باهتمام أحاديث يوحنا ويحيى النحوى قسيس الإسكندرية المسمى لدى الفرنجة « جرما طيقوسى » [1] وكان يعقوبياً ثم رجع

---

(١) ويقال له أيضاً : حنا الآجرومى ، وهو أديب وفيلسوف ويلقب بـ « فيليبونوس » وهو آخر تلاميذ « أمونيوس » ، وكان صديقاً لعمرو بن العاص .

عن فكرة التثليث ، ومن المعلوم أن آراء وأحاديث « يوحنا » التى استمع إليها عمرو كانت مسيحية مما يدل على سعة صدر عمرو .

٢ - لقد مضى نحو ستة قرون على الفتح فلم يذكر أحد من المؤرخين أن عَمْراً أحرق المكتبة ، حتى ولا المؤرخون المسيحيون الذين اهتموا بتاريخ الفتوح الإسلامية وعاصروها ، أو كانوا قريبين من عصر الفتح مثل « يوحنا » أسقف « نقيوس » ، ومثل « أوتيخا » المتوفى سنة ٣١١ هـ ، فضلاً عن كبار المؤرخين كاليعقوبى والكندى والطبرى وابن عبد الحكم والبلاذرى ومَن نقلوا عنهم كالمقريزى وأبى المحاسن والسيوطى وغيرهم .

وكان أول ذكرٍ لهذه الرواية فى القرن السابع الهجرى ، ذكرها عبد اللطيف البغدادى (٥٢٩ هـ = ١٢٣١ م) فى كتابه « الإفادة والاعتبار - ص ٢٨ » ، وقد جاء ذكرها عَرَضاً عند ذكر عمود السوارى ، وذلك - فيما يبدو - نقلاً عن العوام ، ولم يورد لهذه الدعوى إسناداً لواحد من العلماء ، لا ثقةٍ ولا غير ثقة .

* ثم جاء من بعده ابن القفطى وزير حلب المعروف بالقاضى الأكرم (٥٦٥ -٦٤٦ هـ) = (١٢٤٨م) فردَّد ما قاله البغدادى بلا إسناد أيضاً فى كتابه « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ،وجاء بعده أبو الفرج الملطى (٥٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) وهو المعروف بابن العبرى ونسج من خياله قصة فحواها أن « يوحنا النحوى » قسيس الإسكندرية المشهور فى كتب الفرنجة بـ « فرماطيقوس » أى النحوى وكان نصرانياً يعقوبياً خرج على مذهبه وأنكر التثليث ، طلب من عمرو بن العاص أن يمنحه كتب الحكمة التى فى الخزانة الملوكية ، فأرسل عمرو إلى عمر بن الخطاب يستشيره فقال عمر : « أحرق كل كتاب فيه ما يخالف الإسلام » ، فوزع عمرو هذه الكتب على أربعة آلاف حمَّام بالإسكندرية ظلت توقد بها ستة أشهر ، وهذه الرواية مردودة بأمور :

١ - أبو الفرج هذا الذى نسج القصة مسيحى متعصب فلا يُقبل قوله فى دين يخاصمه ، فضلاً عن أنه كان بعيداً عن تخوم مصر .

فهو أبو الفرج بن غريغورس بن أهرون ، من مواليد ملطية بأرمينية ، وقد انتخب « مغريان » وهى كلمة فارسية بمعنى المثمر ، وهذا المنصب من أكبر المناصب الدينية بعد منصب البطريركية ، وهو أشبه بمنصب كبير الأساقفة ، على جهات ما بين النهرين والعراق العجمى ، وكتاب أبو الفرج هذا يسمى « مختصر الدول » وهو الذى نقل عنه « سفارى » فريته هذه وغيرها ، وقد اهتم بهذا الكتاب فترجمه القسيس « إدوارد بوكوك » لما فيه من مغالطات ، والثابت أن مكتبة « البروخيوم » أحرقت أثناء الحرب التى نشبت بين قيصر والإسكندريين ، كما نهبت مكتبة « السرابيوم » فى عهد « ثيودوزيوس » .

وقال الدكتور نظمى لوقا : وليس هناك دليل يدل على أن أصل هذه الرواية أقدم من أيام أبى الفرج ، وقد رواها أبو الفرج فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، أى بعد فتح الإسكندرية بستة قرون ، وعنه نقل أبو الفداء فى القرن الرابع عشر ، ثم نقل عنه المقريزى فى خططه .

وقد ذكر أبو الفرج المالطى نفسه أن الإسكندرية بقيتْ مقصداً لطُلاب العلم من اليونان والنصارى حتى عام (٦٨٠ هـ) - أى بعد الفتح بأربعين سنة - ظلوا يتزوَّدون من مكتبات الأديرة والأفراد .

٢ - قال « بتلر » فى كتابه « الفتح العربى لمصر » (ص ٤٠٣ - ٤٢٦) : « إن يوحنا الذى رويت عنه القصة مات قبل فتح العرب للإسكندرية بثلاثين أو أربعين سنة » ، فالقصة باطلة من أصلها ومصدرها .

وما كان عمرو بن العاص أن يعطيها لصديقه : « حنَّا فيليبونوس » ليجعلها فى أيدى أصحاب الحمَّامات فى المدينة ، فإنه لو فعل ذلك لاستطاع « حنَّا » - أو سواه من الناس - أن يستنقذوا عدداً عظيماً منها بثمن بخس فى تلك الشهور الستة .

كما أن معظم الكتب فى مصر فى القرن السابع - وقت الفتح - كانت من

الرَّقِّ ، أى الجلد المعالَج بطريقة خاصة تجعله لا يصلح للوقود ، فالقول إذاً بأن إحراق مكتبة الإسكندرية تم على يد عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب محض افتراء يُراد به تشويه تاريخ الإسلام (١) .

٣ - إن دعوى وجود أربعة آلاف حمَّام بالإسكندرية فى ذلك الوقت لا يتصورها العقل ، ودعوى كثرة الكتب إلى درجة أنها تكفى وقوداً لأربعة آلاف حمَّام طيلة ستة أشهر أكثر إغراقاً فى عالم الخيال المكذوب ، لأنه مِنَ المعلوم أن مصر كانت قبل الفتح ، ومنذ عهد « دقلديانوس » فى تأخُّر بالغ الغاية ، والذى شاع على ألسنة القبط أنها سبعون يوماً بدلاً من ستة شهور (٢) .

٤ - والثابت - كما قال « أورازيوس » - أنه وجد رفوف مكتبة الإسكندرية خالية من الكتب عند زيارته مدينة الإسكندرية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وهذا يعنى أنه لم يكن للمكتبة وجود منذ أواخر القرن الرابع للميلاد ، أى منذ عهد الإمبراطور « تيودوسيوس » كما أنه لم يرد لها ذكر فى الآداب فى القرنين السادس والسابع ، وبخاصة قبل الفتح الإسلامى .

وقد زار مصر كلٌّ من « حنا مسكوس » وصديقه « صفرونيوس » - قبل فتح العرب بسنين غير طويلة ، وهما مشغوفان بالكتب والعلم ، وقد جابا أنحاء مصر ، وأقاما فيها زمناً طويلاً ، ولم نر فى كتبهما أدنى إشارة إلى وجود مكتبة عامة ، اللَّهم إلا المكتبات الخاصة .

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى والدينى والاجتماعى ، الجزء الأول ، ص ٢٥٨ - ٢٦٤ الطبعة الثالثة .

(٢) نظمى لوقا : عمرو بن العاص ص ١٨٧ - ١٨٨

ومن ثَمَّ فإنه لا يتأتى القول بأن الإسكندرية كان بها مكتبة عامة عندما فتحها العرب (١) .

٥ - وإذْ ثبت أن المسيحيين أحرقوا هيكل « سيرابيس » فمن المعقول أن النيران التهمت ما فيه من الكتب فلم تُبق عليها ولم تذر .

٦ - ولو افترضنا أن هذه المكتبة بقيت إلى الفتح الإسلامى فإنه لم يكن هناك ما يمنع من نقلها إلى القسطنطينية على أيدى الروم - فى أثناء الهدنة ، وقد أجاز لهم عمرو فى عهد (معاهدة) الصلح أن يحملوا كل ما يقدرون عليه ، وكان لديهم من الوقت ما يمكنهم من نقل مكتبات لا مكتبة واحدة .

٧ - وقال « إتيين دينيه » : « القائلون بحرق العرب مكتبة الإسكندرية يُبدون استخفافاً لا حدَّ له بوقائع التاريخ ، ذلك أن مكتبات الإسكندرية قد خربت قبل مجيء الإسلام بقرون متعددة ، وأُولى هذه المكتبات هى مكتبة « البروخيوم » التى كانت تحتوى على أربعمائة ألف مجلد ، وقد أُحرقت أثناء الحرب التى نشبت بين « يوليوس قيصر » والإسكندريين ، وثانى المكتبات هى مكتبة « السرابيوم » التى ضمت فى يوم من الأيام مائتى ألف مجلد أوصى بها « أنطونيوس » ، وقد نُهِبت هذه المكتبة وخربت تماما فى عهد « ثيودوزيوس » .

وقد أنشأت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى فى أيامنا هذه ، على أننا نُفضل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التى يريد بعض الكُتَّاب الذين لم يتخلصوا من طبائع القرون الوسطى المسيحية - أن يذيعوها - تحت ستار من العلم الاستشراقى الظاهرى - فى حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم - أكثر من غيرهم - تاريخ الإنسانية نفسه .

* *

(١) عمرو بن العاص - لنظمى لوقا ص ١٩٤

(ب) حجب النصوص الثابتة :

ومن تزوير التاريخ أيضاً أنهم يعمدون إلى ما يقدمونه من أنباء يحجبونها عن القارئ إذا كان فى ظهورها ما لا يتفق ومزاجهم المنحرف ، فقد حجبوا ما جاء فى « إنجيل يوحنا » عن خاتم المرسلين محمد ﷺ ، ففى الإنجيل : « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن . وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم عن نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية » (يو ١٦ : ١٢ ، ١٣) .

وهو نص أكده القرآن : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [1] = « لا يتكلم من نفسه » ، وفى المخطوطات التى كشفت بجوار البحر الميت ما يثبت أن عيسى كان رسولاً للمسيحيين وأنه بشَّر بأن هناك نبياً آخر سيأتى بعده وقد قال عنه المسيح : « ومتى جاء الـمُعَزِّى (البارقليط) فهو يشهد لى » .

وحجبوا بشارة يوحنا فى (الإصحاح ١٦ فقرة : ٧ - ١١) ونصها : « لكنى أقول لكم الحق : إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم الـمُعَزِّى ، ولكن إن ذهبت أُرسله إليكم . ومتى هو جاء ذاك يبكت العالم على خطية ، وعلى برٍّ وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى . وأما على برٍّ فلأنى ذاهبٌ إلى أبى ولا ترونى أيضاً . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين » . . فهى نص فى أن الـمُعَزِّى يأتى بعد عيسى وأنه حين يرسل يوبخ المخطئين لثلاث خطايا :

الأولى : أنهم لا يؤمنون بعيسى إيماناً صحيحاً .

والثانية : لأنهم اعتقدوا قتله وصلبه وإهانته ، وأن الله لم ينجه من مكر اليهود ويرفعه من بينهم دون أن ينالوا منه .

والثالثة : أنهم انقادوا لرئيسهم ورئيس أمثالهم فى العالَم وهو الشيطان الذى أدانه الله فطرده من رحمته . وحاول « فندل » أن يحرِّف النص بتأويل فاسد له فقال :

---

(١) النجم : ٣

(أ) المُعَزِّى - أو « الفارقليط » - لا يعنى محمداً ، وإنما يعنى روح القدس ، لأنها بمعنى المؤيد أو الوكيل ، وذلك هو المسيح لأن فيه يقول الله : ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ (١) ، ويقول عن محمد : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ (٢) ، ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ (٣) . . وروح القدس هذا كان مع التلاميذ فليس إنساناً بل هو روح محض .

والجواب واضح : لأن « روح القدس » هو جبريل من إضافة الموصوف إلى الصفة ، أى الروح المقدَّسة لطهارته (٤) ، أو أن القدس هو الله ، والروح جبريل ، سمى روحاً للطافته ، لأنه روحانى خُلق من النور ، وقد سمى روحاً لمكانه من الوحى الذى هو سبب حياة القلوب ، فهى إضافة كإضافة عبد إلى الله . وتأييد الله لعيسى بجبريل واضح ، فقد كان فى حمايته وحراسته حتى صعد به إلى السماء على القول بذلك ، وقيل فى تفسير « روح القدس » : « إنه الإنجيل » : بمعنى أن الله أيَّده به وسماه روح القدس لأنه كان حياة القلوب قبل تحريفه . . سمى بهذا كما سمى القرآن روحاً : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ (٥) ، ولكن هذا التفسير ليس بشىء لأن الإنجيل لَم يكن معجزاً بفصاحته حتى يكون مؤثراً على السامعين كما هو شأن القرآن ، أيدَّ الله بإعجازه محمداً عليه السلام ، وقال ابن عباس : روح القدس هو اسم الله الأعظم الذى كان يُحيى به الموتى (٦) : وهو قول متروك لضعف الرواية أولاً ، ولأن ذلك سبق ذكر مضمونه فى بدء الآية : ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ (٧) ، فالراجح أنه جبريل إذن ، وجبريل وغيره من الملائكة مع أنصار الله فى كل عصر ، وكما أيَّد الله بهم عيسى أيَّد بهم محمداً ﷺ وأصحابه : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِه وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (٨) ، ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) البقرة : ٨٧ (٢) الإسراء : ٥٤ (٣) النساء : ٨٠
(٤) تفسير الجلالين للآية . (٥) الشورى : ٥٢ (٦) تفسير الخازن : ١/ ٦٩
(٧) البقرة : ٨٧ (٨) التوبة : ٢٦

نَصرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ، فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلاف مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰ ، إِن تَصبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلاف مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (١) ، ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ (٢) .

فهذه ليست ميزة خاصة بعيسى ، بل هى أكثر وضوحاً فى النبى محمد وأصحابه وأنصاره ، أما الانفراد بنوع من التأييد خاص فهو الذى نزل فى رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ إذ قال له ربه : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ (٣) ، ولا يقال : قد كان عيسى كذلك فإننا نقول : نعم ، ولكن عيسى يقول : « إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّى » ، فالمُعَزِّى أو المؤيَّد لا بد أن يكون شخصاً غير عيسى له نفس التأييد الذى يُذكر لعيسى ، وليس ذلك إلا لمحمد ﷺ كما فى الآيات السابقة .

وإذا تركنا الآيات القرآنية الدَّالة على تأييد الله لمحمد ﷺ ، فإن التاريخ هو الدالُّ أكبر دلالة على تأييد الله لمحمد ، وسِجِلُّ غزواته وفتوحاتِ الإسلام عَقِبه شاهدُ صِدقٍ يستعصى على إنكار حُجِّيته .

وأما أن المُعَزِّى بمعنى الوكيل فلا ينقضه أن يفنى الله الوكالة عن النبى فى موطن من المواطن دون بقية المواطن ، فمعنى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ (٤) : أننا لم نرسلك لنكل إليك أمر الناس فنسألك عن إيمانهم كما يُسئلَ الوكيل عن موكله ، وإنما أرسلناك مبشراً ونذيراً : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ ﴾ (٥) ، فإن آمنوا فذاك خير لهم ، وإن لم يؤمنوا فأمرهم موكول إلى ربهم : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (٦) ،

---

(١) آل عمران : ١٢٣ - ١٢٥ (٢) الأنفال : ٩ - ١٠ (٣) التوبة : ٤٠
(٤) الإسراء : ٥٤ (٥) الشورى : ٤٨ (٦) فاطر : ٨

فالله تعالى ينفى عنه الوكالة فى هذه الصورة فقط ، وأنه ليس وكيلاً عنهم فى الإيمان ، وعدمه ، ولا فيما يترتب عليه من الثواب والعقاب ، أما فيما عدا ذلك فإنه لم يمنع عنه فيه الوكالة ، فيصحُّ أن يكون وكيلاً عاماً أو خاصاً ، وقد أخبر الله عنه بأنه أولى بهم من أنفسهم : ﴿ النَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ (١) فكيف لا يكون وكيلاً عنهم - أى فارقليط أو مُعَزِّياً ؟ - على أن وكالة الرسل عن أممهم ضرورية ، فهو وكيلٌ من غير شك ولا ريب .

وأما أن روح القدس كان مع التلاميذ وأنه الأقنوم الثالث فهو جوهر مجرَّد عن المادة فباطل ؛ لأنه لا يناسب ما بعده بأى وجه ، لأن نص الإنجيل صريح فى أن المُعَزِّى يُرسَل لليهود ، ويرونه ويسمعون تبكيته ، ولا يتم هذا إلا ببشر يرسله الله وقد كان هو محمداً ﷺ .

قال « فندل » : « لقد نزل روح القدس على أصحابه عيسى وحلَّ بهم ، وفضلاً عن أن هذا فيه انقسام الأقنوم فى أشخاص رسل عيسى الجالسين معه حتى تتعدد الآلهة أجساماً وأرواحاً فإنه لا يُقبل ، لأن عبارة المسيح تقول : إن ذلك الرسول يأتى بعد أن يذهب هو إلى ربه وتنقطع صلتهم به ، ثم يوبخ العالَم على الأُمور التى بيَّنها ، فهل جاء المُعَزِّى فى حال وجود المسيح وأخذ يوبخ تلاميذه الأنبياء لأنهم لم يؤمنوا به أم ماذا حصل ؟

(ب) وقال فندل : إن المُعَزِّى لا يصح أن يكون حاملاً سيفاً ، ومحمد ذو سيف .

والجواب : أن محمداً موصوف بأنه رحمة للعالمين ، ومن الرحمة بالمخطىء وبالبشرية أن يُزجر المسىء بما يجعله يرعوى ، وأن تُخلَّص البشرية ويُخلَّص الحق من خصومه ولو بالقوة وإلا فسدت الحياة بسيادة قانون الغابة وبالفوضى .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقسِ أحياناً على مَن يرحم

والمسيح نفسه قرر هذا ، ففى إنجيل متى الإصحاح العاشر عدد ٢٤ وما بعده : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاماً على الأرض ، ما جئت لألقى سلاماً بل

---

(١) الأحزاب : ٦

سيفاً ، فإنى جئت لأفرق الإنسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنَّة ضد حماتها . وأعداءُ الإنسان أهلُ بيته . مَن أحبَّ أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقُّنى » .

وفى الآية ٢٩ من هذا الإصحاح : « ومن أضاع حياته من أجلى يجدها » .

ومن ابتهالات محمد ﷺ : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ، ومن شعائر دينه ما قاله : « أفشوا السلام بينكم » .

كما حجبوا المزمور الذى تناول صفة النبى محمد ﷺ وأوَّلوا قوله : « كرسيك يا إلهى إلى دهر الدهور » ، أى رسالتك ودينك . فجعل « فندل » هذا من كلام المسيح لنفسه .

كما حجب المستشرقون عن قومهم نصَّ « إنجيل متى » حين بشر برسالة محمد من نسل إسماعيل فقال : « الحجر الذى رفضه البنَّاءُون هو قد صار رأس الزاوية ، من قِبَل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا . لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يُنزع منكم ويُعطى لأمة تعمل أثماره » (متى ٢١ : ٤٢ - ٤٣) .

* *

(جـ) تاريخ مكة :

قال « كوسان دبرسيفال » فى كتابه « تاريخ الإسلام - ص ٣٣٦ » : « إن مكة لم تؤسس إلا فى القرن الخامس الميلادى » .

وهو يستهدف التشكيك فى قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ (١) ، لأن من المعروف أن بيت المقدس كان قبل الميلاد بنحو ألف عام ، فتكون الآية - طبقاً لقول « كوسان » - كاذبة ، إذْ أنه لا معنى لبناء بيت الله دون عباد يعبدونه فيه ، وهو كذلك تكذيب بالآيات التى نزلت تحكى ذهاب إبراهيم إلى وادى مكة وبنائه مع ابنه إسماعيل الكعبة ، وأن إسماعيل كان يعيش فى المنطقة مع آخرين من « جُرْهم » ، ولو أن المستشرق قال :

---

(١) آل عمران : ٩٦

إن مكة لم يكن لها وجود سياسى ونظم إدارية إلا فى القرن الخامس الميلادى لكان له شبه العُذر الذى يكذبه أيضاً التاريخ التجارى للجزيرة .

*

(د) اتهام بنى أُمية :

يميل المستشرقون إلى تجريح بنى أُمية ، واتهامهم بالجشع والطمع فى الملك .

وربما كان بعضهم يجرى على ما قرأه من كتابات المؤرخين العباسيين الذين كتبوا تاريخاً لم يشهدوه ، فى ظل حكومة قامت على أنقاض الحكم الأُموى ، والناس فى مثل هذه الحال لا يأبهون لتصحيح خطأ تاريخى ينجم عنه ما يغيظ الحاكم ، بقدر ما يأبهون لنصح الحاكم إلى ما يجب عليه أن يعمله ، وربما أراد بعض المستشرقين بترويج نقائص منسوبة إلى بنى أُمية مجرد إبراز صورة شوهاء للحكم الإسلامى تُبتر من سجل التاريخ الإسلامى الطويل ، فليس لها قبلٌ نظيفٌ مُشْرِق ، ولا بَعْدٌ نقى بهيج ، ولا مُرافق هو غايةٌ فى الطُهْر كتاريخ عمر بن عبد العزيز من بنى أمية .. وقد وقع فى حِبالة المستشرقين ومِنْ قبلهم اليهود - مُزَيِّفو التاريخ - كثيرون من كُتَّابنا وعلى رأسهم عباس محمود العقاد ، فهو يتهم بنى أمية بدسِّ السُّم لمن يخشون منه تهديد عرشهم ، وذلك فى « شهيد كربلاء » وفى « عبقرية خالد » ، إذْ قال : يروى أن معاوية أمر الطبيب أن يدسَّ السُّم لعبد الرحمن بن خالد بن الوليد حين أحس بشخصيته تهدد - بمنزلتها الاجتماعية المرموقة - ولده اليزيد ، وهو يطمع أن يكون خليفته من بعده ، ولم يكلف « العقاد » نفسه تحقيق هذه الرواية ، أو حتى أن يذكر مرجعها .

ويغيب عن « العقاد » والعامة من المسلمين أن معاوية بن أبى سفيان - فى أرجح الروايات - من كُتَّاب الوحى ، وأنه بالإجماع صحابى جليل ولى حكم الشام فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، وأنه حين نازع علياً الخلافة لم يكن فى رقبته بيعةٌ لعلىّ ، لا هو ولا أهل الشام ، وأنه كان متأوِّلاً فيما فعله مع علىّ ، وكان يجتهد وله نيته وأَجْر اجتهاده ، ويتناسى مؤرخو الإسلام - إلا من رحم ربك - أن معاوية أول مَن جعل البحر الأبيض المتوسط بُحيرة إسلامية ، وظلت كذلك طوال عهد بنى أُمية ، وورثها كذلك بنو العباس ثم

العثمانيون ، فلم تصبح - وآسفاه غير ذلك - إلا فى ظل الحكم غير الإسلامى ، فى ظل التمزق تحت راية النعرات القومية « الطورانية » وغير الطورانية . ولا يبغى المستشرقون بتجريح بنى أُمية إلا بصقة غيظ المغتاظ على صرح العظيم حين يمر فى فيئه ، وفى غيبة من صاحب الصرح .

يتناسى بعضنا أن معاوية الذى يرى ضرورة ارتداء لباس الأُبهة سياسةً لقوم فى دمهم تمجيد المظاهر ، قومٍ لا يعرفون الملك ويدينون له بالولاء إلا شاراتٍ ونياشين . . هُو هو معاوية الذى يذهب إلى بيته فيرقع ثوبه كما كان يفعلُ رسول الله ﷺ حتى تباع مراقعه بعد وفاته تبركاً بها .

والعجب أن الناس يمزقون أعراض بنى أُمية غزاة أُوروبا الصليبية مع الصليبيين ، وما فعله معاوية هو ما فعله غيره .

ولئن كان ليزيد بن معاوية سقطة فقد كان له أيضاً جهاد مجيد ، وغزوات فى سبيل الله بأرض العجم كان موفقاً فيها ، ولئن كان معاوية واليزيد قد أرادا أن تكون الخلافة قبل موت معاوية معروفة لمن هى ، فلقد عرف الناس قبل موت أبى بكر لمن هى ، وعرف الناس قُبيل موت عمر فيمن هى ؟ وكان ما رآه المسلمون من ويلات الصراع على اختيار خليفة لهم بعد موت عثمان يفرض عليه وعلى كل مخْلص ألا يترك باب الشر ينفتح مرةً أُخرى ، فاختار معاوية من له عَصَبَة تؤازره ، وخِبْرة بشئون الملك والحرب نشأت عن مخالطةٍ ومعاشرةٍ ومقارفة ، وما يسع منصفاً إلا أن يجتهد اجتهاد معاوية حَقْناً لدماء المسلمين .

ولما مات يزيد وخَلَفه ابنه معاوية الثانى ترك الأمر للمسلمين ، وقيل له - وقد مرض - لوعهدتَ إلى رجل عهداً واستخلفتَ خليفة ؟ فقال : « والله ما نفعتنى حياً فأتقلدُها ميتاً ، وإن كان خيراً فقد استكثر منه آل أبى سفيان ، لا تذهبُ بنو أُمية بحلاوتها وأتقلَّد مرارتها . والله لا يسألنى اللهُ عن ذلك أبداً . ولكن إذا مت فليصلِّ علىَّ الوليدُ بن عتبة بن أَبى سفيان ، وليصلِّ بالناس الضحَّاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم ، ويقوم بالخلافة قائم ، فلما

مات صلَّى عليه الوليد ، وقام بأمر الناس الضحَّاك بن قيس ، وكانت اضطرابات انتهت فى الثالث من ذى القعدة سنة ٦٤ هـ بتولِّى مروان ابن الحكم الذى توفى أول رمضان سنة ٦٥ هـ عن أربع وستين سنة ، ولم يمض على حكمه ستة أشهر - وقيل ثمانية - فبايع أهل الشام بعده عبدَ الملك ابن مروان ، فكان على الشام ومصر ، بينما كان العراق والحجاز فى يد ابن الزبير حتى قُتِل ابن الزبير بمكة يوم الثلاثاء ١٧ من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ ، وكان ابن الزبير فى الثانية والسبعين من عمره ، فتوطدت الكلمة لعبد الملك ابن مروان ، ويذكر الناس لعبد الملك مقتل ابن الزبير ويتركون له حسناته .

فقد روى مروان حديث رسول الله عن سهل بن سعد الساعدى - وسمع عثمان وأبا هريرة وأبا سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله ، وكان مروان فى ولايته على المدينة يجمع أصحاب رسول الله يستشيرهم ويعمل بما يتفقون عليه .. وجمع القيعان (المكاييل) فعاير بينها حتى أخذ أعدلها فأمر أن يُكال به ، فقيل : « صاع مروان » وليست بصاع مروان ، إنما هى صاع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن مروان عاير بينها حتى قام الكيل على أعدلها ، وكان الناس يتعاملون بمثاقيل الجاهلية فكان أول مَن ضرب الدنانير والدراهم الإسلامية سنة ٧٥ هـ ، وهى العام التى حج فيها بالناس ، فلما عاد مرَّ بالمدينة ، فخطب الناس وذكَّرهم بيوم الحَرَّة ووجوب الطاعة ثم قال : ما وجدت لكم يا أهل المدينة مثلاً إلا القرية التى ذكر الله فى القرآن ، فإن الله قال : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (١) فقال ابن عبد لعبد الملك : كذبت ، كذبت .. لسنا كذلك ، اقرأ الآية التى بعدها : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (٢) ، وإنَّا آمنا بالله ورسوله ، فوثب الجند بابن عبد فردَّهم عبد الملك عنه فلما فرغ من خطبته ، ودخل عبد الملك الدار أدخل عليه بابن عبدٍ ، فما جاز عبد الملك أحداً أكثر

---

(١) النحل : ١١٢ (٢) النحل : ١١٣

من جائزته ، تقديراً لشجاعته الأدبية ، ولكنه نصحه قائلاً : إياك أن تفعلها بوالٍ بعدى .

فهذه صفحات مشرقة لعبد الملك طويت بموته فى دمشق يوم الخميس ١٥ من شوَّال سنة ٨٦ هـ ، عن ست وثمانين سنة ، ولى الخلافة فيها ٢١ سنة وشهراً ونصف .

فلما ولى الأمر عمر بن عبد العزيز ، ترك للناس الحرية فى أن يقروا خلافته أو يختاروا غيره ، فلما اختاروه أصلح الله به من شئون الرعية ما طبق ذكره الخافقين ، وما هو غنىٌ عن البيان ، وحسبك من قراراته المعلنة فى خطبةٍ لواليه على الملأ فى مسجده الكوفة قال : جاء فى كتاب أمير المؤمنين يقول : « مَن كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله ، ومَن تزوَّج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله » .

ألا إنه الإسلام عجز عن اللِّحاق به أعظم دجَّالى الدعاة للرأسمالية الديمقراطية وللشيوعية على السواء . . فعلى غير الدعاة للإسلام من أصحاب المذاهب الاجتماعية والسياسية أن يجمعوا - بعد هذه الكلمات - أوراق النصب والاحتيال، فماذا بعد الحق إلا الضلال .

وهكذا شوَّهوا تاريخ بنى العباس والعثمانيين والمماليك والحركات الإسلامية كالوهابيين والسنوسيين والمهديين والإخوان المسلمين ، ومَن لَّف لفَّهم كفدائيان إسلام بإيران ، والجماعة الإسلامية بالباكستان .

حقاً . هؤلاء بشر وكل بنى آدم خطَّاء . . ولكنْ ثمت فرق بين الغارقين فى الأخطاء بُغية الخطأ واشتهاءً للفساد ، وبين نُظُم ومبادئ يُخطئ بعض القائمين بالحكم أو بالدعوة على أساسها فى التطبيق أحياناً ، بينما الغالب والمِسْحة العامة هى الصلاح والعمل المثمر .

وقد جرى فى ركاب هؤلاء كثير من الغافلين المسلمين وغيرُ الغافلين من غير المسلمين .

وروايات « جورجى زيدان » التى نشرها إبَّان السيادة البريطانية على مصر

نماذج مؤلمة وصارخة بالعدوان على الحقائق التاريخية الإسلامية ، بل وعلى الكرامة التى كان يجدر بالمسلمين والعرب - حفاظاً عليها - ألا يمكنوه من أن يدوسها بنعاله الملتاثة بأقذر ما فى جوف حاقد مريض بحقدٍ منتن ذفرٍ مرير يغلى مثل : « استبداد المماليك - فتاة غسان - عذراء قريش - غادة كربلاء - الحجاج - فتح الأندلس - شارل وعبد الرحمن » .

وهو لبنانى كان مرافقاً للحملة النيلية التى توجهت لضرب الحركة المهدية فى السودان وفتحه سنة ١٨٨٤ ، وكان يعمل مترجماً بقلم المخابرات ، وقد اختير عضواً فى المجمع العلمى الشرقى فى بيروت ، وكانت وفاته سنة ١٩١٤ عن ثلاثة وخمسين عاماً .

ولقد ظهر أخيراً كتاب « مجد الإسلام » ومؤلفه الأستاذ « چاستون فييت » فى نيف و ٣٥٠ صفحة حاول فيها المؤلف أن يقدم « بانوراما » لتاريخ الإسلام - أعنى اختصاراً - يبرز أهمَّ الأحداث والمواقف التى تنمَّ عما وراءها من رجال ومبادئ بالتقاط صفحات أو فقرات من أقوال المؤرخين فى العصور المتوالية ، وقد عرض الكتاب وعلَّق عليه الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ، ومن خلال العرض الذى نقله المهندس زكريا هاشم نرى المؤلف الفرنسى يتابع فى تاريخه سقوط الدول وقيامها والحروب ووقائعها ، وكأن ليس فى تاريخ الإسلام غير ذلك من حضارات ومبادئ . .

ونرى فيه كثيراً من الأغلاط أو المغالطات المُسِفَّة أو البالغةِ الغايةَ من الجهالة .

فقد افتتح الكتاب بتاريخ الرسول ﷺ وأسرته ، وزعم أن بنى هاشم آل النبى كانوا بطوناً منها عبد المطلب جد النبى . وكان بنو أُمية - كما زعم - أعزَّ وأقوى من بنى عبد المطلب وبنى هاشم جميعاً ، ولذا كان حُكْم بنى أُمية للعرب والمسلمين أمراً طبيعياً ، وأشاد بمقاومة أبى سفيان للإسلام فى الجاهلية ، وببطولة معاوية فى نزاعه مع علىّ ، وبقتل يزيد للحسين ، وبتمثيل الحجَّاج بأهل العراق . . ثم ينتقل إلى تاريخ العباسيين فيختار بناء بغداد عن ابن واضح اليعقوبى ليدلِّل بهذا على انتقال الدولة الإسلامية إلى يد الفُرس

حتى ينسب إليهم ما قام من نهضات علمية فى العصر العباسى ، أو ينقل عن أبى يوسف القاضى نص رسالة ابن المقفع فى معاملة أهل الذمة . . ينقلها لكى يؤكد ما يقوله غيره من المستشرقين من سوء حالهم فى ظلال الإسلام .

وهذه الرسالة مكذوبة فهى من مخترعات الشعوبيين الحاقدين على العرب والإسلام ، ثم يتجاهل العبقريات القانونية التى نجمت فى العصر العباسى كالشافعى ومالك وأبى حنيفة وأحمد والليث .

وإذا ما وصل الكاتب إلى تاريخ هارون الرشيد تجاهله فلم يذكر إلا قصة إهداء الرشيد ساعة دقّاقة لـ « شارلمان » ، ومع أنها من الأساطير إلا أن الكاتب يتمسك بها لأنها تقول : إن الرشيد أرسل مفاتيح بيت المقدس إلى الملك الفرنسى ، وهذا هو بيت القصيد . . بينما كل مَن لديه أثارة من علم يعرف أن العرب والمسلمين فى تلك الحقبة من الزمن وإلى عهد قريب جداً لم يكونوا يعرفون مفاتيح المدن ، وليس هناك سببٌ معقول يجعل الرشيد يفكر فى هذا . . . ثم ذكر « فييت » نكبة البرامكة برواية المسعودى التى تتضمن اتهام خصومهم .

وفى عصر الأمين والمأمون يطنب فى بيان حروبهما ثم يسمى انفصال الأندلس حركة استقلال ، ويسمى حركة المغرب استقلال البربر ، بينما أهل المغرب ينفضون عن أنفسهم الانتساب إلى البربر ويعدون أنسابهم فى العرب أو الإسلام ، وهكذا سمى كل انفصال عن الخلافة العباسية حركة تحرير كثورة بنى رستم الخارجين فى « تاهرت » - برواية أبى زكريا الخارجى - وثورة الأدارسة وحركة بنى مدار أصحاب سيجلماسة ، ثم يذكر المعتصم والترك ويورد فقرات من رسالة الجاحظ فى فضل الترك ، دون أن يذكر نظيرها عن العرب من الرسالة نفسها ، ويعتم بقصة مصرع الخليفة المتوكل (برواية الطبرى) ، وفتنة الزنج فى جنوب العراق برواية النويرى ، وفتنة القرامطة برواية الطبرى ، ثم ثورة أبى يزيد مخلد على الفاطميين ، وأبو يزيد هذا مشعوذ

محتال ، ويقف طويلاً عند الحاكم بأمر الله ، ثم ينتقل إلى عصر السلاجقة سريعاً فينتهى إلى الحروب الصليبية فينقل عن وليم الصورى بطولة الصليبيين ، إذ قتلوا عند دخولهم بيت المقدس ٦٢ ألفاً حتى انتهى إلى سليمان القانونى باعتباره عَلَماً من الأعلام (١) .

هكذا يعمل المستشرقون فى عرضهم لتاريخنا يصطادون مُنكَر الروايات ، ويُفسِّرون ما له ظل من الحقيقة تفسيراً خاطئاً ليسيئوا إلى الإسلام وأهله فى نظر الشباب الغربى حين يجمح بهم الطموح والرغبة فى كشف المجهول وحبّ الاستطلاع إلى دراسة الإسلام .

وممن تعرَّضوا لبنى أُمية المستشرق الألمانى « يوليوس فلهوزن » أحد المبرزين فى الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدَّس بقسميه القديم والجديد ، والمبرزين فى ميدان التاريخ العربى ، وقد ألّف فى هذا كتابه « تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية » ، كما كتب « لامانس » عن العصر الأموى ، وقارن بين كتابتيهما العالِم الألمانى (ك . هـ . بكر) فقال : كتابات « لامانس » أشبه شىء بمجموعات من الفيشات ، أما كتاب « فلهوزن » فهو بناء ضخم ، و« لامانس » يكوِّن شخصياته التى تكلم عنها جزءاً جزءاً ، لكنه يقع على اللَّون غير الصحيح ، أما « فلهوزن » فهو يزهد فى جميع القطع الملونة الأخَّاذة ، وكأنما ينحت شخصياته من الحجر الأصيل . وفى كل اتجاه عيب .

* *

(هـ) القيمة الحضارية للفتوح الإسلامية :

قال « أندريه هارفيه » : إن الفتح العربى فى قيمته كفتح « أتيلا » زعيم الهون فى القرن الخامس الميلادى لأوروبا ، وكفتوح « چنكيز خان » التترى المتوفى سنة (١٢٢٧م) ، فإنَّ الهُون والتتار لم يتركوا وراءهم فى البلاد التى فتحوها إلا الدمار للمدنيات التى كانت عند غزوهم .

---

(١) المستشرقون والإسلام لزكريا هاشم ص ١٩١ - ١٩٩

* **الجواب** : هذا الذى قاله « هارفيه » وردَّده المستشرقون لانتقاص الإسلام الذى أُقيمت الحياة السياسية والاجتماعية على منهاجه فى الإمبراطوريات التى شادها الإسلام ، إنما هو تجريح للرسول ﷺ وتاريخ الإسلام بغير الحق ، إذْ أن المشاهدة تكذب ذلك ، لأن الفتوح الإسلامية تبعتها نهضة ثقافية وقانونية وعمرانية ليس لها نظير من قبل ، سواء فى العراق أو ما وراءه ، أو الأندلس وجنوب أُوروبا وشرقها ، حتى قال « چوستاف لوبون » فى كتابه « تمدُّن العرب » : « لم تُرزق الأرض بفاتحين أكثر رحمة بالمقهورين من العرب المسلمين » . وقال « سديو » الفرنسى : « لقد نشر المسلمون العلم والمدنية حيث وطئت أقدامهم ، وهذا مما أدَّى إلى أن بعض الشعوب دعت المسلمين لفتح بلادها كيما يتخلصوا - بفضل المسلمين - من سلطان غزاة سابقين مستبدين » .

والمعروف أن فتوح الهون والتتار كانت سَطْواً لا يستهدف توحيد الناس على مُثُلٍ عليا كما هو الشأن فى الفتوح الإسلامية ، ولذا ظل المسلمون يسيطرون على خطوط مواصلات آمنةٍ فى العالَم لا تقل عن أربعة آلاف كيلو متر ، وقد دكَّ المسلمون أقوى أمبراطوريتين مستبدتين بالشعوب ، بينما « أتيلا » و« جنكيز خان » لم يواجها إلا قبائل ودويلات ضعيفة .

ولم يقصدا من غزوهما إلا الاستيلاء على الأراضى ، وتوريث أبنائهما مُلْكاً عضوضاً ، بينما كان المسلمون غير ذلك ؛ فإن أبا بكر وعمر بن الخطاب أبيا - مع إلحاح المسلمين عليهما فى اختيار مَن يخلفهما - إلا أن يكون الخليفة من غير ذريتهما ، فأبو بكر اختار عمر ، وعمر اختار ستة للشورى يختارون من بينهم أميراً للمؤمنين على ألا يكون ابنه هو الخليفة من بعده ، وذلك لتجردهما من المطامع المادية التى من أجلها - فى غير الفتوح الإسلامية - تكون الفتوح .

ومن عجب أن يتهم « فلهوزن » أبا بكر وعمر باغتصاب الخلافة ، وينسى أن الإسلام دين البَشر كافة وليس لأحد فيه وصاية على أحدٍ إلا فى إطار

شريعة الله ، وليس لطائفة من البشر دم خاص يتيح لسلالتها أن تحكم وتسود الآخرين كما نادى « أفلاطون » بذلك ، وهذا يحملنا على القول بأن فكرة الوصىً والإمامة - فى مذهب الشيعة - أثر للفلسفة الجاهلية ، وأفلاطون فى الغرب ، وتوارث العرش فى الفُرس .

وقد عبَّر العلامة « ى . هل » فى كتابه « حضارة العرب » عن أثر الدعوة الإسلامية وفتوحها فقال : « إن جميع الدعوات الدينية قد تركت أثراً فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثَّروا تأثيراً عميقاً فى حضارة عصرهم وأقوامهم ، ولكنا لا نعرف فى تاريخ البشر أن ديناً انتشر بهذه السرعة ، وغيَّر العالم بأثره المباشر كما فعل الإسلام ، ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيداً مالكاً لزمانه ولقومه كما كان « محمد » ، لقد أخرج أُمةً إلى الوجود ، ومكَّن لعبادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطُهْر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأحلَّ النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لا تعرف غير الفوضى » .

إن الفتوح الإسلامية كانت دعوة - لا إلى مال وسلطان - ولكن إلى توحيد الله ، والإيمان بما أنزله ، وتحرير الإنسان من سلطان الأوهام وظلم الإنسان ، إلى سلطان العلم وعدل الإسلام ، فتحرر أهل البلاد المفتوحة فى أبدانهم ، وفى نفوسهم وعقولهم ، وصار شعارهم كما قال علىٌ بن أبى طالب عن رسول الله ﷺ : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحبُّ أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حِرْفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خُلُقى ، وقُرَّة عينى فى الصلاة » .

لقد تبدلت بالإسلام نظرة الفرد إلى الحياة تبدلا تاماً ، وانقلب النظام الاجتماعى بما ابتدع الإسلام من أُصول وحكمة ، وأصبح رعايا الدولة

الإسلامية - قبل الإسلام وبعده - كما قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى حين أرسلت قريش سفراءها إلى ملك الحبشة تطلب تسليم المسلمين اللاجئين إليه : « أيها الملك ؛ كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونُسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منَّا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحدِّه ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمر بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحُسْن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدَّقناه ، وآمنَّا به واتبعناه على ما جاء به ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا قومنا علينا فعذَّبونا وفتنونا وضيَّقوا علينا الخناق ، فخرجنا إلى بلادك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك » (١) .

وقد ذكر « ثوسيديدس » أن أسباب الحروب فى العالم - عدا الإسلام - ترجع إلى أسباب مخجلة ، فمثلاً حرب الولايات المتحدة والمكسيك (١٨٤٥ - ١٨٤٨) كما قال « جرانت » أحد قادة جيوش الولايات المتحدة : إنها حرب تشنها دولة قوية ضد أخرى ضعيفة . وكذلك حرب القرم (١٨٥٤ - ١٨٥٦) التى شنتها روسيا القيصرية . وهكذا حرب الروس مع اليابان (١٩٠٤ - ١٩٠٥) كانت مسألة صراع قوىٍّ مع ضعيف يريد ابتلاعه .

وهكذا الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) كان دافعها رغبة ألمانيا فى التوسع وإيجاد ثغرة لها عبر ستار المستعمرات البريطانية ، وهكذا القول فى

---

(١) بطل الأبطال لعبد الرحمن عزام ص ١١٥ -١١٧

الحرب العالمية الثانية كانت طمعاً فى إيجاد مجرى ملاحى تجارى للألمان فى المياه الدافئة [١] .

وقد كانت حرب الجاهليين للرسول استبقاء لسلطان المرابين والمستغلين الأقوياء ضد محمد عدو الاستغلال ، ومنصف المستضعفين من جور الأقوياء ، فقد حارب رسول الله ﷺ أئمة الكفر فى مكة ، ولم يحارب أهل مكة ، ﴿ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ [٢] ، فلما استسلمت رءوس مكة قال الرسول لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، وعندما نادى المنادى : « مَن دخل داره فهو آمن ، ومَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .. لم يطلب من أحد أن يدخل الإسلام دون صدق اعتقاد ، وهكذا كان الأمر مع كل البلاد التى غزاها صلى الله عليه وسلم .

وقد كان محمد ﷺ يُحسن من فنون الحرب ما لم يكن يُحسنه المعتدون عليه ، ولكنه اجتنب الهجوم والمبادأة بقتال قوم لم يُبيِّتوا له شَراً ، لا لعجزٍ أو خوف مما يجهله ولا يجيده ، وإنما لأنه ينظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له فى اجتنابها ، وقد كان يتجنبها حينما تتيسر له الحيلة الناجحة المغنية عنها ، بل إن البشرية لم تبلغ حتى الآن مبلغ القرآن مع الذين عُرف عنهم الغدر ونقض العهد حين قال سبحانه : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [٣] .

* *

● الدافع الاقتصادى :

ومن الباب الذى دخل منه « أندريه هارفيه » لمهاجمة الفتوح الإسلامية دخل (ى . هل) بأسلوب آخر تابعه فيه جمهرة من المستشرقين ، فقال فى

---

(١) محمد المحارب : للصاغ محمد فرج ص ٢٩ - ٣٠ - الطبعة الثالثة - دار الفكر العربى .

(٢) التوبة : ١٢ (٣) الأنفال : ٥٨

كتابه « الحضارة العربية - ص ٥٢ »[١] : « لقد تجاوز العرب حدود أرضهم إلى فارس والروم بعد أن دمرت الحروب الداخلية أرزاقهم » .

وهذا هو ما عُلِّلت به الهجرات البشرية الكبرى كهجرات العرب - قبل الهجرة - إلى العراق والشام وغيرها ، ولكنه لا ينطبق على الفتوح الإسلامية لا فى عهد الرسول ولا بعده ، فلقد كان المسلم يخرج من ماله وسخائه ورخائه وهناءته جهاداً فى سبيل الله وطمعاً فى جَنَّة الله . .

ففى جيش العُسْرة جهَّزَ عثمان جيشاً على نفقته لقتال الروم ، وما كان خروجه للجهاد إذن لأن حياته المعيشية مدمَّرة ، وهكذا جاء أبو بكر بكل ماله نفقة فى سبيل الله من أجل قتال الروم ، وعندما استولى عمر على بلاد الفُرْس منح الأرض للفلاحين ، ولم يعطها الجيش المظفَّر ، وما ذلك إلا آيةَ الآيات على كذب دعوى « هِلْ » أن الفتوح نتيجة دمارِ الأرزاق فى الجزيرة ، وطلبٌ لها وراء حدودها فى فارس والروم .

ولو أن الفتوح هربٌ من ضيق الرزق فى الجزيرة العربية لتعثَّرت أقدام جند الإسلام فى سندس حوض الفرات ثم دجلة أو نهر العاصى أو النيل . . ولكن أقدامهم ظلت تمضى فى نشاط الريح وصلابة الرواسى الشُّمِّ شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، فخلَّفوا نعيم مصر إلى أدغال السودان وهضاب جنوب ووسط إفريقيا وصحارى شمال إفريقيا والجبال فى فارس وما وراءها . . ليُعمِّروا القفار والجبال ، ويعمروا بالإيمان قلوب ساكنيها . .

ولو أن مستشرقاً أراد أن يتأمل هذه الكلمة الكاذبة بعقلٍ متحرر شيئاً ما ، لضحك ساخراً من نفسه إذ يقول : كيف هذا ؟ فلو أننا تأملنا فاتحى أوروبا لرأينا الفاتحين قادةً من العرب وغيرهم ، وجنوداً معظمهم لم تطأ أقدامهم الجزيرة العربية ، فكيف يقال إنهم هاربون باسم الفتوح الإسلامية من ضيق الرزق فى الجزيرة التى دمرتها الحروب الداخلية ؟

* *

---

(١) ترجمة الدكتور إبراهيم أحمد العدوى - الألف كتاب - مطبعة الأنجلو المصرية .

● الدافع السياسى للفتوح :

ومن باب مهاجمة الفتوح الإسلامية لتشويه الإسلام وسيرة رسول الله وأصحابه وأتباعه : دعوى أن الإسلام دين لا دولة ، والجهاد ليس عملاً دينياً بل حركة سياسية .

وقد روَّج لهذه الفكرة المسمومة الشيخ على عبد الرازق فى كتابه « الإسلام وأصول الحكم » ، والسيد أحمد خان الهندى ، والقاديانية والبهائية ، وسلك مسلكهم جماعة هندية دينية فقالت : ندعو إلى الفضائل لا المسائل ولا الجهاد ، حتى لا ندخل فى مناقشة مع العلماء ، ولا نتورط فى صراع السياسيين .

فهُمْ كبعض الجمعيات التى تجعل فى برنامجها ولائحتها تحْريم الاشتغال بالسياسة على نفسها طلباً للحياة ، وإيثاراً للسلامة من بطش الحكام الظالمين ، ونسوا قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ، لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وما أجدرهم أن يذكروا قول القائل :

تأخرتُ أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

ومن قبل هؤلاء قال ذلك « إخوان الصفا » فى الرسالة السابعة من القسم الرياضى : « فصل فى مثنوية الإنسان » . ومن المستشرقين الذين يدعمون هذا الرأى « توماس و . أرنولد » فى كتاب « الخلافة » (طبع فى أكسفورد سنة ١٩٢٤) .

ويعوِّل على عبد الرازق فى إثبات رأيه على قلَّة النصوص الواردة فى الشئون السياسية المدنية ، وعلَى أن الإسلام جاء ديناً وشريعة تعبُّدية ، وليس للتنظيم المدنى (٢) .

ويتجاهل كل هؤلاء أن الإسلام دين الفطرة كما فى كثير من الآيات : ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (٣) ، وأن الجهاد إذن من الأمور الفطرية التى جاء

---

(١) العنكبوت : ٦٤

(٢) الإسلام وأصول الحكم ص ٨٥ ، ١٠٣ - الطبعة الثالثة - سنة ١٩٣٥ - مطبعة مصر .

(٣) الروم : ٣٠

الإسلام لينظم أحكامها كالزواج حين نزلت أحكامه لتنظيم غريزة الجنس ، وأحكام المعاملات لتنظيم غريزة التملك ، ولا مشاحة فى أن الجهاد من الأُمور الفطرية التى اقتضت نزول تشريعاتها .

كتب الفوز والبقـاء على الأرْ ضِ لناسٍ تدجَّجوا بالســلاحِ

. . . . . .

لم يفُــزْ بالســـــــلامِ إلا أُنا سٌ قد أعدُّوا سلاحهم للقتال

وفى القرآن والسُّنَّة مئات الآيات التى تناولت شئون السياسة والحكم والقضاء بُنى عليها الفقه الإسلامى بموسوعاته ، و« لا ينكر الشمس إلا مَنْ به رَمَد »

وإنّ أى مبادئ فاضلة تريد البقاء والخلود - كشريعة الإسلام الخالدة - لا بد لبقائها من قوة وجند يحميانها ، فلذلك كانت شريعة الجهاد من شرائع الإسلام ، والجهاد هو السور والحارس لأسس الإسلام ، وما لا حارس له ضائع ، وما لا أساس له مهدوم ، وكما فى حديث « السدوسى » : جئت أبايع رسول الله ﷺ على الإسلام فقال : « تبايعنى على أن تشهد أنْ لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤدى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعتَ إلى ذلك سبيلا ، وتجاهد فى سبيل الله » ، فقال السدوسى : أما الجهاد فإنى أخشى إذا حضرتُ المعركة أن تجيش نفسى فأُولِّىَ الدُبر فأكون ممن لعنهم الله ، وأما الزكاة فما لى إلا هذه الإبل هى رِسْل أهل بيتى (من لبنها طعامهم) ، وحَمُولتهم (أى تحملهم) ، فغضب رسول الله ﷺ وقبض يده ، ثم أرسلها مرات ، وهو يقول : « فلا جهاد ولا صدقة . فبم تدخل الجَنَّة إذاً » ؟ ، قال السدوسىُّ : فقلت : يا رسول الله ؛ امدد يدك أبايعك ، فبايعته عليهن كلهن .

وكيف يقال : الجهاد حركة سياسية وليس عملاً دينياً لأن الإسلام

دين لا دولة ، والقرآن نفسه ملئ بآيات الحض على الجهاد : ﴿ وَجَاهِدُواْ فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (١) ، فهو شريعة محمد والنبيين قبله كذلك ، لأنه لا دين بلا جهاد ، وقال سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٣) .

وينص القرآن على أن الجهاد عمل دينى وليس حاجة سياسية وإنْ نَجَم عن انتصارات المجاهدين مكاسب سياسية فهى ليست الغاية والهدف ، قال سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ، قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ، وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ، وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ، وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥) ، وقال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ ، فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٦) .

فهذه الآيات نصٌ على أن الجهاد فريضة ماضية حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، ونصٌ علَى أنه كان فى الشهر الحرام دفعاً لشر الصدِّ عن سبيل

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) البقرة : ٢١٦ (٣) النساء : ٧٤
(٤) البقرة : ١٩٣ (٥) البقرة : ٢١٧ - ٢١٨ (٦) الأنفال : ٣٩

الله والكفرِ به وبالمسجد الحرام ، ودفعاً للفتنة عن الدين التى هى شرٌ من قتل النفس ، وأن الجهاد قائم وماض لأن الكفار لا يزالون يقاتلونكم لا من أجل مصالح سياسية أو تجارية ولكن بتعبير القرآن ﴿ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ (١) ، ثم وصف الجهاد وثمرته بأنه : ﴿ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٢) ، وقال عن المكاسب المقصودة للمجاهد : ﴿ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ ﴾ (٣) ، وهى شىء آخر ليس هو خصوص السياسة والاقتصاديَّات ، وهكذا قال سبحانه : ﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ، فَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٤) ، فالقتال إذن لأنهم ﴿ طَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ ﴾ مع أسباب كلُّها جمَاعُها العداء والمؤامرات على الإسلام ورسوله ، ويحدد القرآن اتجاه ضربات المجاهدين وجهةً دينية صريحة لا تميل يمنة أو يسرة : ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٥) .

ويميز المعسكر الإسلامى ورايتُه بميزة التجرد لله فى القتال ولدينه : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ، فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِى سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ (٦) ، فلو كان الغرض سياسياً ما أقدمت القلَّة لتنتحر أمام مثليهم (٧) كما فى قوله سبحانه : ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ

---

(١) البقرة : ٢١٧ (٢) البقرة : ٢١٨ (٣) البقرة : ٢١٨

(٤) التوبة : ١٢ - ١٣ (٥) التوبة : ٢٩ (٦) آل عمران : ١٣

(٧) تفسير الجلالين للآية - ١/ ٢٧ - المطبعة العامرية العثمانية بالقاهرة .

أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [1] وهكذا قُلْ فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ للهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [2] فهذه التجمعات الرهيبة لا يقف فى مواجهتها - بمنطق السياسة - قلّة جريحة منهكة لولا أن المغنم المادّى والغرض السياسى نتائج تأتى عفواً وراء الغرض الأسمى « الجهاد فى سبيل الله وابتغاء نُصْرة دينه » .

بل إنَّ وصف الغاية من قتال المسلم بصيغة تدل على الملازمة والاستمرار واستحضار الصورة بالنية دائماً وأبداً . لَيبدُو جلياً فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ [3] كما يبدو الارتباط بين النصر وسببه (الجهاد) وبين الهزيمة وسببها (الكفر) فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُواْ ، إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ [4] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِى الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنا وَرُسُلِى ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [5] ، وينص على أن تمكين المجاهدين من عدوِّهم هو من أجْل غايات المعركة وهو الدين : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ﴾ [6] .

* *

(١) الأنفال : ٦٦ (٢) آل عمران : ١٧٢ - ١٧٣

(٣) النساء : ٧٦

والتعبير بصيغة المضارع : « يقاتلون » ، هو الذى يدلُّ علَى الملازمة والاستمرار ، واستحضار الصورة كما يقول علماء البلاغة .

(٤) الحج : ٣٨ (٥) المجادلة : ٢٠ - ٢١ (٦) النور : ٥٥

● **الصراع السياسى داخلى :**

وقد يكون هنالك قتال قام بين المسلمين وداخلَ حَوْزتهم فسَّره المستشرقون بالقتال من أَجْلِ السُّلْطة ، ولكنه - عند التحقيق - من أَجلِ الرأى ، وتأييداً لحقٍّ دينى مطلوب . ولم يحدث - قبل انهدام الخلافة الإسلامية - أن زحفت جنودٌ إسلاميون لقتال فى جهةٍ ما إلا والغرض الدينى واضح بارز ، ولكلٍّ وجهةُ نظرٍ هو مستميتٌ فى الدفاع عنها .

وقد تورط المهندس زكريا هاشم فى هذا المفهوم قائلاً : « ومالى لا أتحدث عما فعل الكاثوليك بأمر « شارل التاسع » ملك فرنسا عام ١٧٩٢ بالبروتستانت من المذابح التى أُحصيت ضحاياها ، فبلغت سبعين ألف نفس ، مقارناً ذلك بالجناية الكبرى التى قام بها « السلطان سليم » عام ١٥١٣ فى بلادِ العجم ، يوم أحصى الشيعةَ فى تلك البقاع بطريقة سرّية لم يشعر بها أحد ، حتى إذا عرف مساكنهم وأشخاصهم ، أمر السلطانَ بإبادتهم فأُبيدوا فجأة عن آخرهم ، وكانوا نحو أربعين ألفاً ، ولم يكن لذلك من سبب سوى القصد إلى إثارة نفس عميد الشيعة « الشاه إسماعيل » ملك العجم واستفزازه للمحاربة طمعاً فى مُلْكه . . فالسبب فى هذا - كما ترون - سياسى بحت ظهر للناس فى شكل دينى »[1] .

وهذه أكذوبة . . فإن السبب فى الصراع - فى الحقيقة - هو ما يعرفه الجميع ، وهو التعصب الشديد عند الترك لمذاهب أهل السُّنَّة ، وقد زحف الشيعة نحو العراق فسقطت فى أيديهم بغداد سنة ١٥٠٨ فاستنجدت بغداد بالأتراك ، وكان الصَّفَويون قد تغلغل نفوذهم الشيعى فى بلاد الأناضول فهددوا تركيا ، فخرج إليهم « السلطان سليم الأول » بجيش قوى علنى والتقى بجيوش الإيرانيين فى معركة « جالديران » سنة ١٥١٤ وانتصر عليهم ، ثم لاحقهم إلى العاصمة الإيرانية « تبريز » ، فدخلها أيضاً حتى أدبها ، ثم تراجع عن البلاد مكتفياً بقيام وحدة سُنِّية تضم تركيا والشام ومصر وسائر بلاد العرب ، إذْ أن المراد من الحرب هو حماية المذهب السُّنِّى ، وليس إذلال

---

(١) المستشرقون والإسلام ص ١٥٠ -١٥١

المسلم الشيعى أو سلْبه خيرات بلاده . ولكنها تركيا المظلومة بفضل جهود الدعايات الاستعمارية ضد الرجل القوى الذى دوَّخ أوروبا ، فلما أمسى « رجلاً مريضاً » أجْهزوا عليه ، فلما قضى نحبه مثَّلوا به وبتاريخه أبشع تمثيل حتى يقترن اسم الخلافة الإسلامية العثمانية بأبشع صورة ، فلا يفكر فى الجامعة الإسلامية ولا فى نظام الإسلام أىُّ مسلم .

وهكذا كرر الاتهام فى حماسة المدافع عن نفسه باتهام الخصم بأنه شريك فى نفس التهمة فقال : « ولقد حذا المسلمون فى هذه النوبة (العصر العباسى) حذو المسيحيين فى بلاد الغرب ، فأقاموا فى بغداد ما أقامه الأوروبيون فى ممالكهم من محاكم التفتيش ضد مخالفيهم فى الرأى » (١) .

فالواقع أن الذين جُنى عليهم أفراد معدودون معروفون ، والعقوبات لم تتجاوز العقوبات العسكرية المعروفة فى القرن العشرين ، وقد انتهت بتولِّى عصر المأمون ، إنها عقوبات الحبس والسياط مع المجادلة . أمَّا محاكم التفتيش فدركات العذاب فيها شتَّى ، منها صندوق به مسامير مدببة من كل جانب ، يوضع المخالف داخل الصندوق الضيق ثم يُغلق ليضغط أضلاعه مع وخز المسامير حتَّى تسيل دماؤه ويختنق ، عدا ألوان أُخرى من القتل ، لقد ظَلَم أخى تاريخ الإسلام بهذه الموازنة ظلماً بيِّناً .

* *

● الفتوح الإسلامية والعلوم :

إن أول ما يتبادر إلى الأذهان فى بيان ارتباط الغزوات الإسلامية بالعلم ما رأيناه من النبى ﷺ يوم « بدر » ، إذ جعل فداء الأسير من المشركين إذا كان يجيد القراءة والكتابة أن يُعلِّم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة ، بينما كانت دولة الإسلام وليدةً تحتاج المال أشد الاحتياج ، ومنح شاعراً من

---

(١) المرجع السابق ص ١٤٩

ذوى الفكر فى قريش الفداء دون شىء إلا تقديراً لأدبه ، على شريطة ألا يعود إلى مهاجمة المسلمين ، لا باللِّسان ولا بالسِنان .

فاستحياءُ المتعلمين والمفكرين استبقاءً لمشاعل النور وتقرير أنه لا يجوز إطفاء السراج إلا إذا امتدَّ لهبه إلى زيته فاستحال إلى حريق سيؤدى إلى كارثة ، ومَن علَّم إنساناً فكأنما أحياه من موته ، وأيما شعب مستعمر أو رجل ذى سُلْطة حال بين أُمةٍ أو فردٍ وبين المعلم فهو قاتلٌ ، هذه تعاليم الإسلام وبهذه الصورة جاء بيان القرآن الكريم : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (١) .

وفى « بدر » تُوضع قاعدة أُصولية هامة فى منهج البحث الشرعى ، وهى قاعدة الاجتهاد فيما ليس فيه نصٌّ شرعى ، إذْ بدأ المسلمون وعلى رأسهم الرسول يفكرون فى أمر الأسارى وماذا يجب أن يفعلوا بهم ، وجمهور العلماء أن الاجتهاد جائز من الرسول حتى فى الحلال والحرام ، وقال المعتزلة والأشاعرة : يجتهد كباقى المسلمين فى غير دائرة التحليل والتحريم فى كل ما لا نص فيه ، وبابُ الاجتهاد هو باب الثراء للفكر الإسلامى وللتشريع عامة . ولقد قيل : إن الوحى كان يتأخر نزوله أحياناً ، وفى بعض المسائل لم يُنزِل الوحىُ بيانها شحذاً لِعُقولِ المسلمين على التفكير ، وإنماءً لثمرات القرائح .

وقد روى عن أم سلمة :« جاء رجلان من الأنصار إلى النبى ﷺ فى مواريث بينهما قد درَست ، فقال النبى ﷺ : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، وإنما أقضى برأيى فيما لم ينزل علىَّ فيه وحى ، فمَن قضيتُ له بشىء من حق أخيه فلا يأخذه ، فإنما أقتطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة فى عنقه » (٢) .

---

(١) الأنعام : ١٢٢

(٢) الدكتور محمد سلام مدكور : الإسلام وأثره فى الثقافة العالمية ص ٢٩ - العدد ٢٧ - من دراسات فى الإسلام .

أمَّا ما وراء عصر النبى ﷺ من الحرص على التعليم والثقافة الإنسانية فحسبك هذه الأمثلة :

* فى معركة « أنقرة » حين انتصرت جيوش الخليفة هارون الرشيد كان ما طلبه - وهو الظافر - عوضاً عن تعويضاته الحربية هو تسلم الكتب والمخطوطات اليونانية مقابل وقف القتال لتُترجم إلى العربية ، دون أى شرط مادىٍّ آخر ، مع تنازله عن نفقات الحملة وتكاليفها ثمناً لهذه المخطوطات المطمورة الآيلة للتآكل .

* وعندما انتصر المأمون بن هارون الرشيد على البيزنطيين طالب « ميخائيل الثالث » بأن يسلمه جميع المخطوطات اليونانية الخاصة بالفلسفة والتى لم تُترجم إلى العربية تعويضاً لخسارة الغرب ، ولم يطلب مالاً ولا عتاداً ، وذلك لأن الكتب - كما قال المأمون - هى « الأسلحة العقلية التى يُتسلح بها فى سبيل السلام وتدعيمه » .

* بل لما أسر المسلمون عدداً كبيراً من الصينيين من أهل سمرقند سنة (٧٥١ م) . وكانوا ذوى خبرة فى صناعة الورق خيَّرهم الحاكم بين الاسترقاق - وقد كان هو النتيجة الطبيعية للأسر فى ذلك العصر - وبين تحريرهم وإطلاق سراحهم بشرط تعليمهم العرب صناعة الورق ، فلما اختاروا تعليم العرب الصناعة حرَّرهم ، وانتشرت صناعة الورق بين المسلمين ، وشُيِّدت المصانع « الطواحين » لذلك . ثم توسع الخليفة المنصور (٧٥٤ - ٧٥٥م) فى نشر هذه الصناعة حتى صارت صناعة الورق من اختصاص العرب ، وعنهم أخذها الغربيون .

* « تروى لنا الدكتورة « سيجريد هونكه » الألمانية : أنه فى القرن الثانى عشر الميلادى عاد نفر من الحجاج المسيحيين من زيارة قاموا بها لقبر الرسول يعقوب فى أقصى شمال غربى إسبانيا - وكان معهم أول ورقة - إلى أوروبا - جاءوا بها من الأندلس العربية ، قالت : وذكر هؤلاء الحجاج أن المسلمين يستخدمون الورق للكتابة وتدوين الكتب المقدَّسة ، وأن الورق يوجد عندهم

بكثرة تسمح باستخدامه فى الأغراض التجارية كلفٍّ البضائع مثلاً ، كما اقتبست أوروبا من المسلمين غير ذلك الكثير من الصناعات ، فالورق ما هو إلا صفحة من صفحات الفخار للعرب المسلمين .

* وقالت : « إن الوزير البرمكى يحيى بن فضل أقام أول مصنع لصناعة الورق سنة (٧٩٤م) ببغداد ، كما أن العرب أوجدوا بعض وسائل الطباعة التى استخدموها فى طباعة الوثائق الرسمية وأوراق النقد » . وليس ببعيد أن تكون فكرة الطباعة نشأت من هنا ، هذا هو فضل الفتوح الإسلامية والفاتحين على الثقافة ، وهذا هو حفاظهم على التراث الإنسانى أن تأكله نيران الحروب أو يبلى مع الزمن وهو فى يد المهزوم المستضعف (١) .

ولعل هذا هو ما دعا « أرنولد » إلى أن يقول : « ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التى وضعت أساس الإمبراطورية الإسلامية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت فى سبيل نشر الإسلام ، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة على الديانة المسيحية » .

ودعا « چوستاف لوبون » إلى أن يقول : « إن القوة لم تكن عاملاً فى انتشار القرآن ، فقد ترك العرب الفاتحون المغلوبين أحراراً فى أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض النصارى الإسلام ، واتخذوا العربية لغةً لهم ، فذلك لما رأوه من عدالة الغالبين ، ولما لمسوه فى الإسلام من سهولة ويسر لم يعرفوهما من قبل ، ولم ينتشر الإسلام بالسيف وإنما انتشر بالدعوة وحدها » .

وحقاً ما قال . . فقد كان دخول الإسلام إلى تلك البلاد يسبق دائماً دخول جيوش المسلمين ، وهذه الجيوش إنما تفد لحماية المسلمين فى البلاد إذا ما استُضعفوا ولم يتمكنوا من إقامة شعائر دينهم وكانوا موضع اضطهاد (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ - ٣٥

(٢) الإسلام وأثره فى الثقافة العالمية ص ٥٢ - ٥٣

ولعل أكبر لطمة لمن انتقصوا الفتوح الإسلامية وشبهوها بفتوح التتار التى ليست لها قيمة حضارية ما نقله « دوزى » فى كتابه « الإسلام والأندلس » من رسالة لكاتب إسبانى فى عصرها الإسلامى يقول :

« إن أرباب الفطنة والتذوق يسحرهم رنين الأدب العربى ، فاحتقروا اللاتينية وانصرفوا إلى العربية ، فدرسوا التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون » .

بل إنهم أغاروا على المخطوطات العربية فى البلاد الإسلامية يشترونها من ورثتها العوام ، أو يسرقونها من المكتبات العامة التى كانت فى منتهى الفوضى وينقلونها إلى بلادهم ، حتى بلغ عدد المخطوطات الإسلامية فى أوائل القرن التاسع عشر : مائتين وخمسين ألف مجلد ، وما زال العدد يتزايد يوماً بعد يوم ، بفضل مزيد من مشتريات الكتب ، وإنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات بأغلى الأثمان .

وكان من أهم تلامذة العرب إمام المدرسة التجريبية « روجرز باكون » الإنجليزى من علماء القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد أشاد بمقررات العرب العلمية [1] .

هذه ثمار الفتوح الإسلامية التى انتقصها المستشرقون . . وتلامذتها كثيرون أمثال « باكون » .

* *

● الفتوح الإسلامية والفنون العسكرية :

لقد أرسى المسلمون فى فتوحاتهم قواعد للحرب لم يكن للغرب ولا للشرق إلمام بها . والمتأمل فى كتب التخطيط (التكتيك) والتعبئة اليوم

---

(١) المرجع السابق ص ٥٧

يجد أحدث النظريات والوسائل وقد سبق إليها معلمو البشرية أتباع محمد عليه السلام ، إنهم قد ربطوا المقاومة بفنون الكيمياء والجغرافيا وعلم النفس واقتصاد الحرب والتربية الرياضية والطب وغير ذلك أيّما ارتباط ، ففى القرن الثانى عشر الميلادى كان المسلمون قد نجحوا فى ابتكار مادة كيماويَّة مفرقعة ، ثم استكملوا - فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى - اختراع مادة مفرقعة دافعة للصواريخ فى حروبهم ضد الصليبيين ، وقد نقلت الدكتورة « سيجريد هونكه » الألمانية فى كتابها « فضل العرب على أوروبا » (١) عن مخطوط لـ « حسن الرماح » يرجع إلى سنة (١٢٧٥م) : « كان العرب فى الأندلس هم أول من استخدم الطوربيد المشحون بالمواد المفرقعة ، يقذفه صاروخ وبه مفجر من ثلاثة محركات ، فالعرب الأندلسيون هم صانعو القنابل من البارود فى أوروبا ، وقد استخدموها فعلاً فى كثير من حروبهم .

فالتاريخ يحدثنا أن المدفعية العربية قذفت بقنابلها فى الأعوام (١٣٢٥، ١٣٣١ ، ١٣٤٢م) تجمعات معادية فى مدن ، فأحدثت هذه القنابل ذعراً شديداً فى صفوف الأعداء ، وفى عام (١٣٤٦م) دارت معركة طاحنة هى المعروفة باسم « كريسى » فأصلت فوهة المدفعية العربية العدو نيراناً حامية حتى أطلق عليها الأوروبيون وقتذاك : « فوهة الشيطان » ، فكان هذا نقطة تحول فى الذخيرة والعتاد » .

وكانت رغبة المسلمين بهذا التطوير حسم المعارك بدلاً من إطالة أمد الحرب الذى يرهق المتقاتلين وشعوبهم حتى يستنزف الحياة من هياكلهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية ، فإنَّ حسم المعارك العاجل يتيح الفرصة للمغلوب أن يستعيد بناء كيانه ، وأن يستعيد فى نفس الوقت مفاهيمه (إيديولوچيته) ومفاهيم المنتصر ، فينقِّح من فكره وسلوكه أو يتبع الظافر إن راقته مبادئه ، فهو اختراع قاسٍ للمرحمة قسوةَ مبضع الطبيب .

ولم ينس المسلمون جوانب العلوم التى تخدم الكيان الإنسانى فى زحمة

---

(١) ترجمه الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين على - طبعة النهضة المصرية ص ٣١ - ٣٣

الفتوح وتطوير الذخيرة ، ففى تاريخ الطب تقول الدكتورة « سيجريد هونكه » : « والحق أن الطب الصحيح لم يكن إلا عند المسلمين العرب ، فالدراسات الطبية عندهم لم تكن - قبلهم - تقوم على أسس علمية ، وهم أول مَن فرَّق بين الطب والصيدلة ، فقد أسس العرب أول صيدلية عامة فى القرن الثامن الميلادى فى عصر الخليفة المنصور ، كما أوجدوا صيدليات متنقلة مع المشافى المتنقلة التى أوجدوها ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه الكنيسة فى أوروبا ترى أن استخدام أدوية غير روحية - وكذا احتراف مهنة الطب - عمل مشين يتنافى مع الكرامة » .

ثم قالت : وإن مرجع هذه النهضة العلمية عند المسلمين والسبق الحضارى هو العقيدة الإسلامية ، التى نشأت فيهم ، وقام بتوجيهها رسولٌ منهم آخى بين معتنقى دعوته ، وخلق فيهم أُخوَّة إسلامية قوية جعلتهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً بعد تفكك ، وذلك مصداقاً لقول الله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُواْ نعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ (١) ، (٢) .

وفى التاريخ السياسى والحربى قال « فون كرمر » : « إننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسى والحربى الذى يتعلق بتلك العصور الوسطى لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل فى جمعهم للأخبار ، وإن بيننا وبين ذلك التاريخ اثنى عشر قرناً ، لهذا تتناسب الدقة فيه مع طول هذه الشقة » (٣) .

ومن هذا القبيل قول « هانوتو » : إن ما لدى المسلمين من معرفة

---

(١) فضل العرب على أوروبا الصفحات من ٢٠٠ - ٢٢٢ ، ٢٥٩ - ٢٦٠ ، والإسلام وأثره فى الثقافة العالمية ص ٨٠

(٢) آل عمران : ١٠٣

(٣) الدعوة إلى الإسلام لسير « توماس و . أرنولد » - ترجمة الدكتور حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النحراوى ص ٨٨ - الطبعة الثانية .

وثقافة هو بعض بقايا التمدن البيزنطى « يونان الشرق » وليست ثقافة أصيلة ابتدعوها ، وقد ردد ذلك « كويلر يونج » فى مؤتمر « برنستون » للثقافة الإسلامية (١) .

والرد على هذا يسير ، فقد ظلت التجارب العلمية الشخصية التى قام بها علماء الإسلام - بل والدول الأوروبية - كابن النفيس والجاحظ والرازى وغيرهم ، إلى جانب البحوث العلمية التى احتضنتها الدولة كأبحاث الرصد الفلكى وغيرها دليل الأصالة .

وينشر « م . سفارى » حديثاً ضعيفاً عن علىّ بن أبى طالب يُظهره بمظهر صاحب الحق الأول فى الخلافة الإسلامية وليس أبا بكر وعمر وعثمان ، ليثير الشيعة ويُحدث فجوة بين الطوائف الإسلامية يسعى المستشرقون - ومن ورائهم الاستعمار وقادة الحروب الصليبية فى الكنيسة - إلى إحداثها بكل وسيلة ؛ فى دوائر المعارف ، وفى كتب خاصة مثل كتاب « دين الشيعة » الذى أصدره القسيس الأمريكى « د . م . دونالدسون » عام ١٩٣٧ ، وكتاب « أصل الدروز وديانتهم » لفيليب حتى ، و« دراسات فى تاريخ الثقافة الإسلامية لـ « جروبناوم » ، وفى كتب عامة مثل « تاريخ الشعوب الإسلامية » لـ « كارل بروكلمان » الألمانى الأصل وعضو المجمع العلمى العربى الدمشقى . وقد تُرجم إلى الإنجليزية ، ومثل « تاريخ العرب » لـ « فيليب حتى » ، و« دراسة فى التاريخ » لـ « أرنولد توينبى » فى كل ما يتصل بالإسلام ورسوله ، أو يتصل بموسى عليه السلام ، ومن هذه الكتب ما هو مليء بالطعن والتجريح للرسول ورسالته .

* *

● آثار التجريح :

وقد رأى الأستاذ « مالك بن نبى » أن هذه الإساءات لم يكن لها أثر على المسلمين ، وهذا ما سلَّمتُ به بالنسبة لمستشرقى العصور الوسطى ومسلمى

---

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة لمحمد خلف الله ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ فى مقالته « أثر الإسلام فى الثقافة المسيحية » - الطبعة الثانية .

تلك الحقبة ، أما الآن وبعد التفاعل الفكرى بين كل شعوب الأرض فأرى أن كتابات المستشرقين هذه ذات أثر سيء على مَن يُكثرون استماعهم لها ، أو يقلّ سماعهم لها ولكن تضمحل مناعتهم لقلّة زادهم من الفكر الإسلامى أو اليقين الإيمانى الواضح الصورة ، وذلك أن اعتياد المسلم سماع هذه الأكاذيب والمفتريات يجعل حماسته لدينه تفترُ فلا ينبرى لمهاجمتها ، ويأتى الجيل الذى بعده ، وقد رأى المسلمين من آبائه - عندما تُثار هذه الاتهامات ضد النبى والإسلام ، لا يحركون تجاهها ساكناً ، فيقع فى رَوعه أن هذه الاتهامات - إن لم تكن حقاً - فعلى الأقل آراء ذات قيمة ولها نوع من الاعتبار ، فيتسرب الشك فى جلال الإسلام ونبيه إلى نفوس الجيل ، وبهذا يضعف الارتباط بين المسلمين وبين نبيهم ودينهم ، وتنحل العروة الوثقى بين المسلمين ، ويصبحون لقيمات صغيرة فيسهل على المستعمر ابتلاعهم ، وعلى المسيحية واليهودية غزوهم فكرياً ودينياً .

فهذه الاتهامات إذن سمٌ قاتل . . يقتل ببطء ، وهو تخدير بالمؤلم كضربة شديدة على الأنف أو تحت الأذن تُسقط المضروب مخدراً فاقد القدرة على التحرك بعض الوقت حتى يسلبه الضارب ما يشاء أن يسلبه منه ، ولهذا فإن الإسلام يأمرنا أن نبتعد عن سماع ما يُفترى على الإسلام ، وأن نعزل المسلمين عن خصومهم فكرياً وعقائدياً : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) فهو يفرض الانسحاب من الجلسات التى تعرض بسوء للإسلام ، وهذا هو أقوى صور الاحتجاج السلبى الذى ينمّى فى المسلم المناعة ضد الفكر الخبيث ، وهذا هو الذى يفرض علينا أن نرد على المستشرقين .

وعملية التحاجز هذه أسلوب تعرفه سياسة العصر ، بل هو سلاح استعمله الكفار أنفسهم : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنعام : ٦٨ (٢) فصلت : ٢٦

وإن عملية تجريح الإسلام ورسوله - حينما تصدر ممن معه السُلْطة العليا في البلاد ، وبيده اقتصاديات ووظائف العباد - يكون أثرها الضار بالغاً ، إذْ تضطر المستضعفين إمَّا إلى الهجرة من البلاد فيصفُو للمستعمرين الجو ، وإما أن يذعنوا ويتظاهروا باعتناق الدين الجديد أو المذهب البديل - أو على الأقل يمشى - مَن لم يهاجر - فى ركاب الغازى ، ويلقى سلاح المقاومة ويصير أداة للمستعمر الظاهر أو المضمر - فيما يزعمه إصلاحاً للبلاد وربما غلَّفه باسم الإسلام ، فتُمسى فى البلاد حركة هدَّامة باسم الإسلام . . وهذا هو الذى وقع فيه - سواء درى أوْ لم يدر - كثيرون من قادة الفكر والسياسة فى العالم الإسلامى كأحمد لطفى السيد ، وطه حسين ، وسيد أحمد خان الهندى الذى بدأ استرضاء الإنجليز بكتابة كتاب يثبتُ أن الإنجيل والتوراة لم يُبدَّلا . فلما لم يرضوا عنه انتحل مذهب الطبيعيين الدهريين ، وزعم أن الأنبياء كانوا طبيعيين ، فراق للشباب ما يدعو إليه ، لأن فيه تبرير التحلل من قيود الشرع كافة ، وأعجب الإنجليزَ اتجاهُه وأسسوا له فى « عليكرة » مدرسة سموها « مدرسة المحمديين » ، ثم الكلية الإنجليزية الشرقية المحمدية التى تسمى الآن الجامعة الإسلامية وذلك ليصطادوا تحت اسمها « المحمديين » أبناء المؤمنين بمحمد ، فيربُّوا على أفكار « أحمد خان » الذى أخذ يفسر القرآن تفسيراً محرَّفاً ابتدأ فيه من البقرة حتى انتهى إلى سورة الكهف ، ثم أخذ بهذا الأُسلوب يعمل ، فأنشأ جريدة « تهذيب الأخلاق » التى كان يكتب فيها داعياً إلى التحلل من عُقْدة الأديان والتعصب لها ، ويُشوِّه تاريخ العثمانيين ، وقد انبرى للرد عليه جمال الدين الأفغانى فى رسالته « الرد على الدهريين » .

وقد افتتن « أحمد خان » بالعلوم الطبيعية ومنطقها الذى يكفر بما وراء المادة من الروحانيات ، ويسَّر له الإنجليز ترويج هذه الأفكار إذْ أنَّ نشرها بين الشباب يجعله يميل إلى دعوى المستعمرين أن النبوة تأتى بالكسب والمجاهدة ، وليست هدية الله للناس ، وما دامت النبوة كذلك فالكتب السماوية - بما فيها القرآن - من كسب الأنبياء وعملهم ، وليست وحياً إلهياً .

وما دامت هذه الكتب بشرية ، فإن مخالفتها ليست مخالفة للسماء ، وكل ما فيها من دعوى تنتسب إلى السماء فهى دعوى زور ، وهذا هو الطريق الفكرى الهادى إلى الكفر بمحمد وبالقرآن . طريق يغزو الشباب بلا مدفع ولا سيف .

وقد ظهر على يد « أحمد خان » فكرة « إنسانية الأديان » ، وهو المعنى الذى يستظل به اليهود تحت لواء الماسونية ، وبناء عليها تكون دعوى « فرضية الجهاد » فى الإسلام قولاً عابثاً ، وحين يسقط الاعتقاد بوجوب الجهاد يسقط السيف من أيدى رجال مقاومة الاستعمار ، بل إن الذين رباهم « أحمد خان » انبروا إلى منازلة الوطنيين فى الصحف والأندية ، وتحول الصراع إلى داخل الأُمة بعد أن كان صراعاً بين الأُمة وبين الأجنبى الدخيل ، وأصبحت مدرسة « أحمد خان بهادرو » ومن بعده القاديانية التى أسسها « ميرزا غلام أحمد القادياني » المتوفى (عام ١٩٠٨) ، ثم جماعة « لاهور الأحمدية » التى تزعمها كل من « مولاى محمد على » و« خواجه كمال الدين » اللَّذين ثارا على القاديانية وقالاً إن « غلام أحمد » مجرد مصلح ، وليس نبياً .

ومهما يكن فقد أصبحت مدرسة « أحمد خان » ، وأتباع القاديانية ، والأحمدية فى جانب - والإمام « أحمد بن عرفان » الشهيد المتوفى سنة ١٨٤٢ فى جانب آخر ، وعلى قدم الشهيد فى الجهاد كان الأفغانى ، ثم محمد إقبال ، ثم أبو الأعلى المودودى ، وأبو الحسن الندوى مؤلف كتاب « القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام » .

وما حدث فى الهند من قبول للتجريح ، ثم تطور إلى مساندة المجرِّحين حدث فى غيرها من الأمصار الإسلامية تحت ضغط الحاجة وسطوة الاستعمار .

* *

● لماذا الاهتمام بتجريح الرسول :

لقد كان من طُلاب الحكمة الإسلامية فى الجامعات الإسلامية بالأندلس وصقلية أُناس من النصارى وصلوا إلى مقام « البابوية » ، وأُناس ارتفعوا إلى مقام الهداية الفكرية بمعزل عن الكنيسة ، بل على خلاف عقائدها الموروثة المأثورة ، فلما هالهم هذا النفوذ الفكرى وأزعجهم شيوعه فى معاقل الفكر ومعاهد العبادة ، أقبلوا على تأليف الكتب التى اجتهدوا غاية الاجتهاد أن يصبغوها بالصبغة العلمية ليضمنوا رواجها بين طُلاب المعرفة ، آملين أن تكون مقنعة لمن يطلبون الدليل ولا يقبلون أن يُخدعوا بأباطيل الدعاية والتضليل ، وجعلوا همهم كلَّه تشويه الحكمة الإسلامية بتشويه مصدرها الأول ، وتصوير صاحب الدعوة الإسلامية فى صورة بعيدة عن التقديس والاحترام ، ولا حاجة بهم - بعد ذلك - إلى البحث فى دقائق الحكمة وأسرار الفلسفة لتنفير ذوى الأفكار من النبى ورسالته ، لأن تمثيل إنسان مقدَّس فى الصورة التى تنزع القداسة عنه أيسر جداً من عناء الدراسة فى نقض العقائد وإدحاض الأفكار .

ونجاح هذا الأسلوب - فى أكثر الحالات - يتوقف على سهولة الإصغاء إليها فى الجهلاء والأغرار ، بل فى طبائع بعض الفضلاء الذين يسرعون إلى النفور من التهم السوء ، لأنهم يعافون السوء ، ويعرضون عن التفتيش فى دخائله ، وعن التحدث بأخباره أو تضيقُ عقولهم أحياناً عن الجمع بين الاحتراز من قالة السوء ، والاحتراز من قبول هذه القالة بغير دليل [1] ، « ولئن دل هذا التعنت على شىء ، فعلى شدة حرص أصحابه على التشكيك فى الإسلام ، وهم لم يستطيعوا الطعن على هذا الدين لذاته ، وقد رأوه ديناً بلغ غاية السمو مع بساطة ويسر هما مصدر قوته ، لذلك لجئوا إلى حجة العاجز حين يدع الأثر العظيم لا يعرض له بمطعن لأن المطاعن لا ترقى إليه ، فهو يتناول من صَدَر هذا الأثر عنه ، أو كان وسيلته إلى الناس فيجعله هدف مطاعنه ، وهذا عجز لا يلجأ إليه عالِم ، وهو - بعد - مناقض لقانون الطبيعة الإنسانية ،

---

(١) المستشرقون والإسلام لزكريا هاشم ص ٥٣٦

ففى طبيعة الناس أن يُعنوا بالآثار لذاتها ، وأن يستمتعوا بثمراتها دون بحث لا طائل تحته فى مصدرها ووسيلة حدوثها ونموِّها ، وهم لذلك لا يعنَّون أنفسهم بالبحث فى أصل الشجرة التى أنبتت الثمرة التى تعجبهم ، ولا فى السماد الذى أدى إلى ازدهارها ما داموا لا يفكرون فى غرس شجرة مثلها ، أو شجرة أشهى منها ثمراً ، وهم حين يبحثون فى فلسفة « أفلاطون » أو مسرحيات « شكسبير » أو فن « روفائيل » لا يتلمسون المطاعن فى حياة هؤلاء العظماء حين لا يجدون على هذه الآثار مطعناً ، فإذا التمسوا المطاعن التى لا سند لها من الحق لم يبلغوا من ذلك غايتهم ، وإن كشفوا عن سوء رأى وحقد يسقط حجتهم ، ويحول دون الاستماع لهم ، ولن يُغيِّر من ذلك أن يُفرَغَ هذا الحقد فى قالب العلْم ، فالحقد لا يعرف الحقيقة ، وكبُرتْ الحقيقة أن يكون الحقد لها مصدراً ، وهذا شأن مطاعن أُولئك المستشرقين على النبى العربى خاتم المرسلين ، ولذلك هوت مطاعنهم إلى الحضيض » [1] .

* *

● دوافع الانحراف وأسبابه :

١ - نشأ انحراف المستشرقين عن الحق نتيجة تأثرهم منذ نشأتهم الأولى بالمسيحية وبما كتبه الرهبان عن الإسلام مدفوعين بحب الترويج للمسيحية إلى انتقاص رسول الإسلام ورسالته .

٢ - ونتيجة لفقدان المستشرقين الحسَّ الإسلامى الذى ينمو فى البيئة الإسلامية ويضمُر حتى العدم خارجها ، فافتقدوا القدرة على تذوُّق النصوص وفهمها بالروح التى يتذوق بها المسلم نصوص دينه فيفهم المراد منها . .

٣ - ونتيجة لعدم أصالة المستشرقين فى الدراسات العربية وعدم تمرُّسهم بمناهج البحث الخاصة بالدراسات الإسلامية التى تسمى « علم مصطلح الحديث » ،

---

(١) حياة محمد : لمحمد حسين هيكل ص ٤٢ ، ٤٣ - الطبعة الثانية .

أو « علم الرجال » ، أو « علم أصول الفقه » بل حتى « علم المنطق » ذاته .

٤ - وقد يكون الدافع إلى الانعطاف عن الحق هو الرغبة فى نفاق المجتمع والحاجة إلى رواج ما يُكتب فى المجتمع غير الإسلامى .

٥ - وربما كان هذا كيداً للإسلام ورغبة فى توهين شأنه والغض من شأن رسوله ، لاعتقاد غير المسلمين أن الإسلام هو الصخرة التى يتحصَّن بها ووراءها المسلمون لينجوا من الغزو الدينى والاستعمارى كما قال « جلادستون » ، و« المونيسينور كولى » ، و« لورانس براون » ، و« كالهون سيمون » .

٦ - ويكثر المستشرقون من اتهام الإسلام بأنه دين نُشِر بالسيفِ ليشوهوا بواعث انتشار الإسلام وتلقيه بالقبول .

٧ - وليستثيروا كُتَّاب المسلمين لتلمس مبرِّرات دفاعية غافلين عن طبيعة الإسلام ، وأنه عقيدة وحركة عملية لتحرير الإنسان من كل نظام أو قوة تحُول دون بلاغه للناس ، أو دون إقدارهم على التحرك بحركته ومفاهيمه .

٨ - وفى تقرير لجنة العمل المغربى فى أوروبا أن « سيكارد » قال : « إن الإسلام فى روحه الخاص قوة مخالفة لاحتياجاتنا ورغائبنا ونزعاتنا ، وهذه القوة يمكن تسكينها ، ولا يُستطاع التغلب عليها إلى الأبد ، فمن مصلحتنا أن نعمل ما فى طاقتنا للتقليل منه بين الشعوب الخاضعة لسلطتنا » .

وقال مستشرق آخر : « إن مصالحنا تحتم علينا أن نجعل تطور المسلمين خارج حوزة الإسلام » .

٩ - وقد يكون السبب فى الخطأ هو جهل المستشرق بالمراد من الكلمة فى العصر الذى قيلت فيه ، فيفسِّرها بالعامية المعاصرة .

وفسَّر بعضهم كلمة « الصعيد » ، وهو الوجه القبلى فى مصر بـ « السَّعيد » لاختلاط الأمر عليه ، وعدم تفرقته بين السين والصاد .

١٠ - وقد يكون السبب هو انضباع [١] المستشرق بثقافة عصره ومجتمعه فيقع فى تفسير الظواهر الاجتماعية والحوادث التاريخية فى الجاهلية والإسلام بالمقاييس التى يُفسِّر بها أحداث عصره ومجتمعه بالرغم من اختلاف الطبائع والمجتمعات ، من عصر لعصر وبيئة لبيئة .

١١ - قد يُراد - عند الكتابة - التنفير من حياة المسلمين الحاضرة والغابرة فتصوَّر فى كتب التاريخ والرحلات بأنها حياة بدائية ، وتبرز من طبائعهم وعاداتهم العادات المنحطة ، ومثال ذلك ما كتبه « سفارى » عند ذكر رثاء قتلى المشركين ، وعند ذكر تناول مندوب قريش لحية النبى يوم الحديبية ، وكثيراً ما تُروَّج الشائعات الكاذبة عن رجالات الإسلام ، وكبار شخصياته التاريخية لطمس معالم العظمة الذاتية فى الإسلام والمسلمين ، كما فعل « سفارى » هذا عند ذكر قصة خالد بن الوليد يوم « جذيمة » ، وذكر شائعة حرق مكتبة الإسكندرية كما بيَّناه فى السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون عند الحديث عن إسلام صناديد قريش (ص ١٧١ - ١٧٢) .

١٢ - وقد يُراد تفتيت الكيان الإسلامى بتمزيق الوحدة الفكرية حول الآراء الغربية والمفاهيم الإسلامية التى جمعت المسلمين أيام قوتهم ، فالمتمزقون فكرياً لا يلتقون سياسيا ولا اقتصادياً ولا عسكرياً ، وهذا هو الذى مهَّد للاستعمار فى الشرق الإسلامى كله .. حتى إذا أفاق - اليوم - وجد هوة يشق معها التلاقى بين أبنائه الذين أمسوا شِيَعاً وأحزاباً ، وصاروا كتلاً ضخمة متعادية .

١٣ - وقد يكون الهدف هو شحن المسيحيين واليهود فى غزوهم للعالَم الإسلامى بطاقة تولِّد فيهم الحقد والسخرية والاستصغار لشأن المسلمين عن طريق هذه الصور المشوَّهة للإسلام ولنبيِّه ولمعتنقيه ، حتى يكون الصراع بين الإسلام وخصومه ضارياً ، والتشكيك فى مصدر الإسلام - وهو القرآن - وفى قيمة محتوياته كما سيأتى .

١٤ - وكثيراً ما يكون تفسير الأحداث والنصوص تفسيراً خاطئاً لخدمة

---

(١) الانضباع : التأثر تأثيراً شديداً لا يمكن التخلص منه فى الاتجاه الفكرى ، كالضبع ، يقال : إنه بعنقه عظمة تمنعه من أن يحرك رقبته يمنة أو يسرة كما يشاء ، فكذلك « المضبوعون » بالثقافة الغربية لا يخرجون عن روحها فى تفكيرهم .

الغرض الاستشراقي السياسي والتبشيري بإبراز أعداء الإسلام في صور نبيلة وإنسانية ، والغضِّ من شأن الإسلام دعماً لخصوم الإسلام ، وتحقيراً لشأن الإسلام ورجاله في نفوس الجيل الذي يعمد المستعمرون إلى تربيته على أيدي المستشرقين من طُلابنا في الغرب حتى يشبَّ الجيل الذي ستُلقَى في يده مقاليد الأُمور وقد تميَّعت في نفسه قضايا الإسلام وحقائقه ومقرراته إذا لم يكن قد اقتنع بأنها قضايا منكرة ، ومقرراتٌ فكريةٌ متخلفة يجب عليه حربها بشجاعةٍ باسم الإصلاح والتجديد .

وفي ظل هذا الجيل الذي يربيه المستشرقون في الغرب - أو في ديارنا - الجيل الذي يخجل أن ينتسب إلى الإسلام أو يظهر قائماً بشعيرة من شعائره .. في ظل هذا الجيل لا توجد مقاومة للتسلُّط الأجنبي على البلاد ومقدَّراتها ومعتقداتها ، بل يوجَد العملاءُ الذين يخدمونه ويقمعون بشدة خصوم هذا المتسلِّط الأجنبي الذي يتوارى ويترك في الواجهة هؤلاء المصنوعين على أيدي المستشرقين .

١٥ - وبعض المستشرقين ملحدٌ آمن بالعلم وكفر بالدين والوحي ، فهاجم محمداً كما هاجم عيسى واتهمه بالجنون ، ومنهم مَن أنكر وجود عيسى وموسى التاريخي .

١٦ - ومن المستشرقين مَن يكتب تاريخ النبي أو بحوثه الإسلامية نقلاً عن مصادر مسيحية لا عربية فيقع في الخطأ دون أن يدري .

١٧ - من المستشرقين مَن يعرفون ضعف الروايات التي يذكرونها سواء في التاريخ والسيرة أو في الأحكام الشرعية ، وإنما يذكرونها جرياً وراء الغرائب ، ورغبة في إشباع طبيعة العناد والمخالفة .

كل هذه الأسباب أو الدوافع أدَّتْ إلى الانحراف ، أو إلى الخطأ في الفهم ، وجعل ثمار الاستشراق في مجال الدراسات الإسلامية بعامة - والسيرة النبوية بوجه خاص - ثماراً فجَّة ، وغير صالحة للتناول ، ولا موثوقاً بها ، حتى قال الدكتور حسين الهراوي في نقده كتاب « درمنجم » : « إننا لا نجد في كتابات المستشرقين عن الدين إلا الغمز واللَّمز » .

* * *